

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عمار ثليجي الأغواط

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية والحضارة

قسم التاريخ



العنوان

موقف محمد ابن محمود العنابي من الإحتلال الفرنسي

مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر

تخصص تاريخ المغرب العربي المعاصر

تحت إشراف:

✓ فاطمة دجاج

من إعداد الطالب:

✓ عبد الحميد الواهج

السنة الجامعية: 1444هـ-1445هـ

2023م-2024م

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عمار ثليجي الأغواط

كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية والحضارة

قسم التاريخ



العنوان

موقف محمد ابن محمود العنابي من الإحتلال الفرنسي

مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر

تخصص تاريخ المغرب العربي المعاصر

تحت إشراف:

✓ فاطمة دجاج

من إعداد الطالب:

✓ عبد الحميد الواهج

السنة الجامعية: 1444هـ-1445هـ

2023م-2024م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

کتاب ۱۴۱۷

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

أهدي ثمرة جهدي إلى من أمرنا الله ببرهما، إلى من بذلا الكثير وقدموا ما لا يمكن أن يرد، إلى والديّ الكريمان، فقد كنتما النور الذي أكملت به الطريق.

إلى إخوتي الأعزاء فقد كنتم دائماً وخير داعم لي.

إلى زملائي في قسم التاريخ

إلى جميع طلبة العلم.

الواهب عبد الحميد

الشكر والعرفان

الحمد أولا وأخيرا لله تبارك وتعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، الذي أعانني على

إتمام هذه الدراسة، ويسّر لي سبل الفهم، وعلمنا ما لم نعلم سبحانه وتعالى

كما أتقدم بعظيم وكبير الشكر والعرفان إلى أستاذتي المشرفة (فاطمة دجاج)

على ما بذلته من جهد في تقويم هذه الدراسة وعلى ما قدمته من وقت في

توجيهها ومتابعتها حتى تمت بحمد الله وفضله، كما أريد أن أشكرها على

توجيهي نحو هذا الموضوع فجزاها الله خير الجزاء

وفي هذا المقام لا يسعني إلا أن أتوجه بجميل الشكر والعرفان إلى كل من كان

عونا لي في مسيرتي الدراسية، وإلى كل من قدم لي يد المساعدة في إنجاز هذا

البحث.

قائمة المختصرات

الرمز	الشرح
ص	صفحة
ج	جزء
مج	مجلد
ع	عدد
تر	ترجمة
تق	تقديم
د.ط	دون طبعة
م	ميلادي
تح	تحقيق

مقدمة

أجمعت الدراسات التاريخية على تقسيم الحكم العثماني في الجزائر إلى أربعة مراحل أساسية، اختلفت كل مرحلة عن الأخرى بمجموعة من الخصائص السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية وحتى الثقافية، وتعتبر مرحلة البدايات آخر مراحل الحكم العثماني بالجزائر إحدى المراحل الحساسة بالنسبة للإيالة الجزائرية، حيث شهدت خلال هذه المرحلة العديد من التطورات والتغيرات في الميدان السياسي العسكري والاجتماعي، مما أهلها بأن تكون المرحلة الأكثر تأثيراً والأشد وقعا على المسار التاريخي للإيالة الجزائرية وتطوراتها خاصة في الجانب السياسي.

وعلى إثر هذه الأوضاع ظهر مجموعة من العلماء المصلحين ومن بينهم المفتي محمد ابن محمود العنابي، الذي يعد من أبرز علماء الجزائر الذين نادوا بضرورة الإصلاح في جميع الميادين، وخاصة الجانب السياسي والعسكري، بعد أن لاحظ اتساع الهوة بين ما تعيشه الدول الأوروبية من نهضة حديثة، ومن تطور اقتصادي وعسكري بفضل سياساتها الحكيمة والراشدة، وما كانت تعيشه الدولة العثمانية من تقهقر اقتصادي وعسكري، خسرت به الكثير من هيبتها العالمية بسبب سياسات سلاطينها وولااتها.

كما كان لابن العنابي دور آخر في جهاد الاحتلال الفرنسي لا يقل أهمية عن الإصلاح المنشود، ألا وهو الدفاع عن حقوق وممتلكات الشعب الجزائري الضائعة بعد الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر والتي ضمنتها بنود معاهدة الاستسلام 5 جويلية 1830م.

بناء على كل هذه المعطيات جاء الإختيار لهذه الأطروحة الموسومة بعنوان: موقف محمد ابن محمود العنابي من الاحتلال الفرنسي.

أسباب إختيار الموضوع

أ- الأسباب الذاتية

- الرغبة في الإطلاع والتعرف أكثر على هذه الشخصية ودورها في مرحلة مهمة من تاريخ الجزائر.

- إبراز الدور الذي لعبه ابن العنابي لإصلاح أوضاع الجزائر.

- رغبتنا في إبراز موقف ابن العنابي من الاحتلال الفرنسي ودوره في مقاومته.

ب- الأسباب الموضوعية

- معرفة مدى فاعلية آراء ونشاط ابن العنابي في تحديد مستقبل الدولة الجزائرية من خلال دراسة موقف ابن العنابي من الحكم الجديد وهو السلطة الفرنسية.

- معرفة مدى تأثير الفكر الإصلاحى للمفتى ابن العنابي عند الحكام في الجزائر وخارجها

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية الدراسة في أنها تعرف بإحدى الشخصيات الهامة خلال فترة جد صعبة من فترات تاريخ الجزائر، وهي شخصية ابن العنابي الذي يعد من أبرز فقهاء المذهب الحنفي، ومن أبرز رجالات الإصلاح والفكر في الجزائر خاصة والعالم الاسلامي عامة، كما كان له دور بارز في مقاومة الاحتلال الفرنسي.

الإطار الزماني والمكاني

تطرقت هذه الدراسة إلى شخصية مهمة بمدينة الجزائر، برزت دعوته الإصلاحية بالنهوض بالأمة الإسلامية، فقد عاش المفكر الجزائري مُحَمَّد ابن العنابي في الفترة الممتدة من 1775م إلى 1851م، هذه الفترة التي جمعت بين مرحلتين مختلفتين في الجزائر، إنها فترة الحكم العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي. أما الإطار المكاني فيتمثل في مكان إقامة الرجل الذي نشأ فيه وقاوم فيه الاحتلال الفرنسي.

الإشكالية

على ضوء ما تقدم تكون صياغة إشكالية الموضوع كالآتي:

- ما موقف ابن العنابي من الاحتلال الفرنسي؟ وفيما تمثلت أساليب مقاومته للاحتلال؟

ويندرج تحت هذه الإشكالية الرئيسية مجموعة من التساؤلات الفرعية:

- من هو مُحَمَّد ابن العنابي؟

- فيما تمثلت ملامح الوقائع التي عايشها؟

- ماهي أهم الإصلاحات التي جاء بها؟

- ما موقفه من الاحتلال الفرنسي؟ وكيف قاومه؟

منهج البحث

نظرا لطبيعة موضوع البحث، إعتمدنا على المنهج التاريخي الوصفي الذي من خلاله حاولنا إبراز أهم الأحداث التاريخية التي عايشها ابن العنابي، خاصة مع نهاية فترة الحكم العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي، إضافة لاعتمادنا على المنهج التحليلي لفهم فكر ابن العنابي الإصلاحية والبحث في موقفه من الاحتلال والظروف التي كانت وراء نهاية نضاله.

الخطوة المتبعة

وللإجابة على الإشكالية المطروحة اعتمدت خطة عمل ضمت مقدمة وثلاث فصول وخاتمة وملاحق. جاء الفصل الأول بعنوان **السيرة الذاتية لمحمد ابن العنابي** والذي قسمته إلى ثلاث عناصر، تناولت مولد ونشأة ابن العنابي إضافة الى التكوين العلمي والفكري للرجل، كما عالج هذا الفصل أيضا الوظائف التي تقلدها ابن العنابي في الجزائر وخارجها وأهم إنجازاته العلمية.

أما الفصل الثاني بعنوان **أوضاع الجزائر خلال العهد العثماني وجهود ابن العنابي الإصلاحية**، والذي قسمته إلى عنصرين، تناولت أوضاع الجزائر خلال العهد العثماني، وجهود ابن العنابي لإصلاح أوضاع الجزائر.

أما الفصل الثالث فقد جاء بعنوان **محمد ابن العنابي والإحتلال الفرنسي**، والذي قسمته إلى أربع عناصر، تطرقت إلى موقف ابن العنابي من سياسة كلوزيل اتجاه الأوقاف، ومقاومة ابن العنابي للاحتلال الفرنسي، وموقف الاحتلال من نشاط ابن العنابي، كما عالج الفصل حياة ابن العنابي في المنفى ووفاته.

نقد مصادر ومراجع البحث

المصادر:

أهم مصدر في هذه الدراسة هو كتاب محمد ابن العنابي السعي المحمود في تنظيم الجنود الصادر سنة 1827م مكون من قسمين يتعلق القسم الأول بالأمور الحربية والثاني يتعلق بالأمور السياسية وقد استفدنا من هذا الكتاب في التعرف على أوضاع الجزائر المزرية أواخر العهد العثماني ومحاولة المصلح إيجاد حلول لتلك الأوضاع وقد استفدنا منه في الفصل الثاني خاصة فيما يتعلق بتوضيح جهود ابن العنابي الإصلاحية

المراجع:

-دراسة أبو القاسم سعد الله، تعتبر من أهم الدراسات التي تناولت الموضوع، في كتابه " رائد التجديد الإسلامي مُحَمَّد ابن العنابي، الذي قدم الكثير من المعلومات عن حياة ابن العنابي عن نشأته ومراسلاته، وعلاقته بالفرنسيين، وإجازاته، ووفاته،... وهذا ما أفادني كثيرا في التعريف بشخصية ابن العنابي.

- دراسة فوزية لزغم، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي، وهي عبارة عن أطروحة دكتوراه، تخصص تاريخ وحضارة إسلامية، جامعة وهران، 2013م-2014م، والتي أفادني في التعرف على التكوين العلمي والفكري لابن العنابي.

- دراسة أجقو علي، المفتي الحنفي الجزائري ابن العنابي وإسهاماته في مجال الثقافة، السياسة، الإصلاح، المقاومة، وهي مقالة منشورة في مجلة تجسير للأبحاث والدراسات متعددة التخصصات، مج:1، ع1، جامعة باتنة، 2021م، والتي تطرقت إلى وظائف ابن العنابي داخل وخارج الجزائر، إضافة إلى مقاومته للاحتلال الفرنسي. وقد أفادني كثيرًا في فهم الموضوع ورسم خطوطه العريضة.

-دراسة قاسي فريدة، رواد الإصلاح الجزائريون خلال الفترة الحديثة ابن العنابي أنموذجا وهي عبارة عن مقال منشور في مجلة الإنسان والمجال، مج:8، ع2، مخبر الدراسات المتوسطة عبر العصور، جامعة يحي فارس، المدية الجزائر، ديسمبر 2022م، والتي تناولت الإصلاحات التي جاء بها ابن العنابي بما في ذلك الإصلاحات السياسية والعسكرية والثقافية..... وقد استفدت منها في فهم الفكر الإصلاحي لابن العنابي وأهم الإصلاحات التي نادى بها.

الصعوبات

لا يخلو أي بحث من عراقيل، فقد اعترضتني عدة صعوبات خلال إنجاز هذا العمل ومنها:

-ضيق الوقت لإنجاز هذه المذكرة، بين جمع المادة العلمية، وترتيب المعلومات، وكتابتها.

-عدم التفرغ الكامل لإنجاز البحث، بسبب الظروف الاجتماعية.

الفصل الأول

السيرة الذاتية لمحمد ابن العنابي

أولاً: مولده ونشأته

ثانياً: تكوينه العلمي والفكري

ثالثاً: وظائفه ومراسلاته

تمهيد

أنجبت الجزائر الكثير من الرجال العظماء، فمنهم من حمل السلاح وشارك في المعارك من أجل تحرير وطنه، وبعضهم الآخر حمل بدل السلاح القلم ودعى إلى الإصلاح والتجديد، وشارك في ميادين عديدة السياسة والثقافة وأثبت وجوده داخل وطنه وخارجه، ومن هذا القسم الذي كانت مشاركته فعالة وكان من المساهمين في النهضة العربية بالشرق الشيخ "مُحمَّد ابن العنابي"، هذا الأخير الذي يعد من أوائل القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر هجري).

ومن خلال هذا الفصل سنحاول التعرف على شخصية ابن العنابي، أصله ومولده، وتكوينه العلمي وظائفه ومسؤولياته.

أولاً: مولده ونشأته

عرف المجتمع الجزائري خلال الحقبة العثمانية كغيره من المجتمعات ظاهرة الأسر المتنفذة، ومن أهم هذه الأسر أسرة آل العنابي التي هي حجر الزاوية في دراستنا التي تهدف تسليط الضوء على واحد من أبنائها ألا وهو مُحمَّد بن محمود العنابي، الذي لعب دوراً هاماً في مؤسسات عدة على غرار هيئة الإفتاء، والمناداة بالإصلاح في مجالاته المختلفة¹.

1- مولده

هو أبو عبد الله، مُحمَّد بن محمود بن مُحمَّد بن حسين بن مُحمَّد بن عيسى الأزميتلي (أو الأزميري) الجزائري، الحنفي، اشتهر بابن العنابي، نسبة إلى مدينة عُنَّابة وهي مدينة باقصة الشرق الجزائري، ولد ابن العنابي عام 1189هـ-1775م²، حسبما أكدته بنفسه في إجازته للشيخ مُحمَّد بيرم³ التونسي سنة 1245هـ، وتوفي

¹-قاسي فريدة، "رواد الإصلاح الجزائريون خلال الفترة الحديثة ابن العنابي أنموذجاً"، مجلة الإنسان والمجال، المجلد: 8، العدد: 2، مخبر الدراسات المتوسطة عبر العصور، جامعة يحي فارس، المدية الجزائر، ديسمبر 2022م، ص ص 139-140.

²-أجقو علي، "المفتي الحنفي الجزائري ابن العنابي وإسهاماته في مجال الثقافة، السياسة، الإصلاح، المقاومة"، مجلة تجسير للأبحاث والدراسات متعددة التخصصات، مج: 1، ع: 1، جامعة باتنة، 2021م، ص 9.

³-مُحمَّد بيرم: بن مُحمَّد ابن حسين بن احمد بن مُحمَّد بن حسين ابن بيرم فاضل من علماء تونس ولد سنة 1749م، ولي القضاء سنة 1192هـ، واستقال بعد عام وثلاثة أشهر، له كتب ورسائل منها رسالة في الطلاق، رسالة في الخط، توفي سنة 1831م. أنظر: خير الدين الزركلي، قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج 7، ط 5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ماي 2002م، ص 74.

بإجماع الباحثين في الإسكندرية بمصر سنة 1267هـ-1851م¹.

عاش ابن العنابي عمرا حافلا بالانتاج العلمي والاضطراب السياسي، فتعتبر هذه الفترة التي تتوزع على القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين (18 و19م) تعد من أخرج الفترات التاريخية لا في الجزائر فحسب ولكن في الدولة العثمانية والعالم الاسلامي قاطبة، فقد عاصر الثورة الفرنسية وما نتج عنها من أحداث مست جوانب متعددة من الحضارة الإسلامية، وعاصر في بلاده (الجزائر) حروبا خارجية ضد الإنجليز والأمريكان والفرنسيين والإسبان والتونسيين وغيرهم، وحروبا داخلية كثورة الطريقة الدرقاوية وثورة ابن الأحرش، والتنازع على السلطة بين الطائفة التركية نفسها سواء على مستوى السلطة المركزية في مدينة الجزائر أو على مستوى الأقاليم، وكان ضحية كل هذه الحروب (الخارجية والداخلية) هو الرجل العادي من الفلاحين وأصحاب الحرف والتجار، لأنه هو الدافع للضرائب وهو وقود الفتن.²

وبالإضافة إلى ذلك عاصر ابن العنابي، الذي تولى عدة وظائف رسمية، بداية عهد التنظيمات في الدولة العثمانية من جهة وأخذ محمد علي والي مصر عندئذ بمبادئ التمدن الغربية من جهة أخرى.³

أما في الجزائر حيث كان يعمل فإننا لا نجد هذه الظاهرة قد وجدت لها مكانا، حقا إن الإنكشارية⁴ قد تدهورت كنظام وأصبحت عاملا سلبيا في الحياة السياسية والاقتصادية، بل أصبحت مثار فتنة واضطراب في البلاد، ولعل ذلك هو ما جعل الداوي علي خوجة يحاول التخلص منهم سنة 1817م بطريقة سبق بها السلطان محمود الثاني معهم، ولكن علي خوجة قد مات بالوباء، وفشل فيما رامه وعاد بعده الإنكشارية إلى أصولتهم، ولعا ذلك هو ما ساعد على الإحتلال الفرنسي للجزائر بعد حوالي عشر سنوات من وفاته⁵

2- نشأته

¹ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد ابن العنابي، ط2، دار الغرب الإسلامي، جامعة الجزائر، 1990م، بيروت، لبنان، ص21.

² - نفسه، ص21.

³ - نفسه، ص22.

⁴ - الإنكشارية: هي كلمة عربية وقد حرفت عن الكلمة التركية عند ترجمتها وهي "بني تشاري" وترسيم بالتركية "يكيچري" وهكذا نجد أن الكلمة مكونة من مقطعين الأول يكي بمعنى جديد، جري بمعنى العسكر، فيأتي المعنى الكامل العسكر الجديد أي الجيش الجديد، وتأتي أيضا بمعنى الجند الجديد. أنظر: أماني جعفر الغازي، دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية، ط1، دار القاهرة، شارع محمد فريد، مصر، 2007م، صص 21-22.

⁵ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص22.

نشأ ابن العنابي في أسرة عريقة في العلم والوجاهة فأبوه محمود من علماء الحنفية وأحد أعيان البلد أشتهر بالعلم والتقوى، وحظي بالتقدير الكبير من طرف العلماء والحكام (ت1236)، وكما تولى جده الأكبر المفسر حسين بن محمد الإفتاء الحنفي ولقب بشيخ الإسلام وهو منصب لا يفوقه في الاعتبار سوى الداوي رئيس الدولة (ت1150)، كما تولى جده الأدنى محمد بن حسين قضاء الحنفية بالجزائر جده وكان عالما حظي بالتقدير الكبير من علماء عصره (ت1203)، كان عالما حظي بالتقدير الكبير من علماء عصره، وهو منصب مهم جدا في تلك الآونة، إذ كان يعد من المناصب في السلم الإداري، وكذلك أشتهر أخوه لأمه الشيخ مصطفى العنابي (ت1131) بالعلم والفقه وقد شاركه في الأخذ عن الكثير من شيوخه وأساتذته، وهو يعد من فقهاء الحنفية ومحدثيها وقد تولى قضاء الحنفية في الجزائر¹.

رحل إلى المشرق بعد سنة 1820م ونزل الإسكندرية، وحج منه وعاد إلى تونس سنة 1244هـ، ثم إلى الجزائر بعد حوالي سنة، أي قبل ابتلائها بالاحتلال الفرنسي البغيض سنة 1830م، وبعد الاحتلال بحوالي سنة نفاه الفرنسيون، فتوجه إلى مصر واستقر بالإسكندرية، فولاه محمد علي باشا وظيفة الفتوى الحنفية فيها، فاستمر إلى أن توفي عن ثمان وسبعين سنة²، أرخ وفاته الشاعر محمد عاقل بقوله: "اليوم رمس مفتي الإسكندرية"³.

وقد ترك العديد من المراسلات في العديد من المواضيع خاصة الدينية منها وأشعارا وكتبا أهمها "السعي المحمود في نظام الجنود سنة 1242هـ، الذي ألفه بالقاهرة وقال فيه: "إن الأوروبيين نظموا جنودهم ليضروا بالإسلام وأهله، وأمام هذا الخطر الداهم، أصبح من المحتم على المسلمين أن يتعلموا منهم ما اخترعوه من صنائع ونظم"، إضافة إلى كتاب "ثبت الجزائري" و"شرح الدر المختار"، لم يكمله، و"العزير في علم التجويد"، كما ذكر أن أسرة ابن العنابي ما تزال حتى اليوم بالإسكندرية، وتُعرف بأسرة المفتي الجزائري⁴.

وخلاصة القول إن ابن العنابي ولد ونشأ في أسرة ذات أصول تركية عريقة في العلم والجاه، مما جعلها تتمتع بمنزلة دينية واجتماعية معتبرة، فقد تولى الكثير من أفرادها مناصب دينية وسياسية وفكرية هامة، وتركوا

¹ - أجقو علي، المرجع السابق، ص9.

² - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1400هـ-1980م، ص245.

³ - أجقو علي، المرجع السابق، ص10.

⁴ - نفسه، ص10.

مؤلفات وآثار علمية وفكرية أثروا بها المكتبة الاسلامية التراثية، لكنها ضاعت حينما ابتليت الجزائر على غرار العديد من بلاد الإسلام بالاستعمار الأوروبي¹.

¹ - أجقو علي، المرجع السابق، ص10.

ثانيا: تكوينه العلمي والفكري

يعد المنشأ الأسري من الأمور الأساسية التي تساعد في تكوين الفرد وتحصيله العلمي وتلقينه مبادئ الحياة، إذ أنه وبمجرد خروجه إلى العالم الخارجي يجد نفسه محصناً بسلاح العلم والقيم التي اكتسبها في بيته الأسري، وهذا ما يساعده على الوقوف متصدياً للتيارات الثقافية التي تستهدف قيمه وزاده المعرفي، وهذا ما يظهر جلياً في شخصية ابن العنابي الذي تلقى ثقافة سار عليها في بقية مشوار حياته ناهجاً نفس النهج الذي سار عليه آباؤه وأجداده من العلماء.

1-تعليمه

يعد ابن العنابي من الأوائل الذين أخذ عنهم العلم في الجزائر جده مُحمَّد بن الحسين الذي قرأ عليه مُحمَّد صحيح البخاري وأجازه بفقهه وبقراءاته وكتب الحديث الستة، أما عن والده محمود بن فقد قرأ عليه الفقه الحنفي وغيره من العلوم، كما تلقى العلم على المفتي المالكي علي ابن عبد القادر ابن الأمين المتوفى سنة 1820م¹.

كما أخذ العلم على عدد من كبار الشيوخ والأساتذة الذين اشتهروا في النصف الأخير من القرن 12هـ/ 18م، منهم الشيخ حمودة بن مُحمَّد المقايصي الجزائري، الشيخ عبد الله بن سالم وأحمد بن الكاهية الحنفي الذي أجازه في القراءات².

الملاحظ في شيوخ ابن العنابي أنهم كلهم كانوا قامات عالية في العلم والحديث والفقه والقضاء، عرف عنه مقدرته على معالجة العديد من القضايا سواء الدينية أو الاجتماعية أو السياسية أو حتى الخرافية وهذا دليل على عمق ثقافته، فهو يستدل بالعديد من الآيات والأحاديث والآثار والوقائع³.

أما عن تلامذته فهم من كبار العلماء في الفقه الإسلامي منهم شيخ الإسلام مُحمَّد بيرم الرابع (1220 هـ - 1278 هـ / 1805م - 1861م) والشيخ إبراهيم السقا الشافعي المصري الأزهري والشيخ عبد الرحمن بن

¹ -عمر بن قينة، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث (أعلام وقضايا ومواقف)، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر، ص21.

² -نفسه، ص21.

³ -نفسه، ص22.

حسن حفيد شيخ مُحمَّد بن عبد الوهاب¹.

وقد وصفه تلامذته على أنه أثريا سلفياً وحسب تركية إمام عصره العلامة عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ إذ يقول: "لقيت بمصر مفتي الجزائر مُحمَّد بن محمود الجزائري الحنفي الأثري، فوجدته العقيدة، طويل الباع في العلوم الشرعية"² وقال عنه عبد الحميد بيك في تاريخه: "كان رحمة الله عليه، إماما فاضلا عارفا بالعبادات والأحكام في المذاهب الأربعة على اختلافها واختلاف أقوالها والراجح منها والضعيف حسن فيها وعالم في باقي المنقول والمعقول والسياسات العمومية والخصوصية الخارجية والداخلية"³

كان تمكن ابن العنابي في العلوم و المعارف الشرعية أقوى، مع تفتح واع على مشاكل العصر وتفاعل معها وجاءت ثقافته من اهتمامه الشخصي بالدرجة الأولى، ومن تقاليد أسرته بالدرجة الثانية التي أمدته بتراث غزير من الأحكام التي كان يصدرها آباؤه والشهرة التي كانوا يتمتعون بها لدى العامة والخاصة، ويبدو أنه كانت لدى ابن العنابي مكتبة ضخمة قد ورثها عن أسرته وأضاف إليها من سعيه، والظاهر أن مكتبته الخاصة قد أصيبت بالتلغ أثناء إجباره على مغادرة الجزائر سنة 1831م، بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر وأن ما بقي منها قد أصيب بالتلغ بعد وفاته في الإسكندرية، و قد كان في مدينة الجزائر علماء معاصرون له من بينهم المفتي الشاعر مُحمَّد بن الشاهد والمفتي مصطفى بن الكبابطي، إضافة إلى العالم مُحمَّد مالك والكاتب السياسي بن حمدان خوجة⁴ وجميع هؤلاء قد لعبوا أدوار بارزة في هذه الفترة من تاريخ الجزائر⁵.

¹ - عمر بن قينة، المرجع السابق، ص22.

² - نفسه، ص22.

³ - عبد الحميد بيك، أعيان من المشاركة والمغاربة، تقديم وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2000م، ص190.

⁴ - حمدان خوجة: ولد بمدينة الجزائر سنة 1187هـ-1773م، أحد أعيان مدينة الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي للبلاد، وعائلته كانت تملك أراضي واسعة في سهول متيجة والبنايات في العاصمة، كان أبوه فقيها وأميناً عاماً للأيالة مكتائجي، وكان طليعا وقد زار العديد من العواصم الأوروبية، ويعتبر من ألمع وجوه المقاومة السياسية الوطنية، غادر الجزائر سنة 1833م. أنظر: عبد المجيد بن عدة، رائد المقاومة السياسية الحديثة في الجزائر السيد حمدان بن خوجة 1773م-1845م، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، ع9، مج2، جامعة الجزائر، 2003م، ص1.

⁵ - عمر بن قينة، المرجع السابق، ص22.

ويعتبر ابن العنابي من أوائل المجددين ودعاة الإصلاح الاجتماعي والسياسي في العالم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، وهو ما يظهر جلياً في مؤلفاته¹.

رغم أن ابن العنابي من المجددين، إلا أنه لم ينسلخ في طريقة تفكيره عن روح عصره، إذ هو من العلماء المتمسكين بالطرق الصوفية، وهي سمة العصر، فهو يعد شاذلي الطريقة².

تتصف ثقافة ابن العنابي بأنها تقليدية إذا ما حكمنا عليها من خلال كتابه "السعي المحمود في نظام الجنود"، ووصفها بأنها تقليدية لمجرد تركيز فكره في الجانب الديني كون أن الثقافة الإسلامية تحمل في طياتها كل المبادئ التي تساعد على تسهيل أمور المسلمين بما في ذلك الأخذ الآخرين (غير المسلمين فيما يعود بالنفع على الفرد والمجتمع)³.

مما نستنتج أن ابن العنابي كان على اطلاع عما كان يعيشه العالم الإسلامي والعالم الغربي من صراع حول النفوذ، فجاءت مؤلفاته متنوعة في العلوم الشرعية وقضايا العصر بالرغم من أن مؤلفات من عاصروه كانت لا تخرج عن طابع علوم اللغة والعلوم الإسلامية في تلك الفترة⁴.

2-فكره

إن البلاد الإسلامية في الفترة التي عاصرها ابن العنابي تميزت بالضعف وتفوق الأمم الأوروبية عليها، وبذلك أصبحت تشكل هذه الأخيرة خطراً عليها وعلى دينها، لذا تحركت أقلام بعض المفكرين لتدارك الوضع قبل فوات الأوان⁵.

كان ابن العنابي من الأوائل الذين طرّقوا باب الاجتهاد الذي ظل مغلقاً لقرون نتيجة التأخر الفكري الذي كان عليه العالم الإسلامي، كما عالج قضية تخلف الجيوش الإسلامية أمام زحف الجيوش الأوروبية⁶.

¹ - عمر بن قينة، المرجع السابق، ص23.

² - فوزية لزغم، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي، أطروحة دكتوراه، تخصص تاريخ وحضارة إسلامية، كلية العلوم الانسانية والحضارة الإسلامية، قسم تاريخ، جامعة وهران، الجزائر، 2013م-2014م، ص ص74-75.

³ - عمر بن قينة، المرجع السابق، ص23.

⁴ - نفسه، ص23.

⁵ - فوزية لزغم، المرجع السابق، ص75.

⁶ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص15.

يظهر ذلك جلياً في الفوارق الكبيرة التي حدثت بين العالمين الإسلامي والغربي في الكثير من القضايا وفي مقدماتها التقدم العلمي والمادي والتنظيم السياسي وقضايا الحقوق والواجبات المتعلقة بالمواطن والسلطة أهم ما ركز عليه هو إقامة نظام سياسي يمكن الأمة الإسلامية من استعادة قوتها، إضافة إلى إصلاح الجيش وإقامة جيش عسكري حديث يتلاءم وروح العصر بعد أن لاحظ اتساع الهوة بين ما تعيشه الأمم الأوروبية من نهضة حديثة ومن تطور سياسي وعسكري¹.

وبينما كانت تعيشه الدولة العثمانية وإيالاتها من تقهقر اقتصادي وعسكري، وأمام هذا الخطر المحتم أصبح ولا بد على المسلمين أن يتعلموا منهم ما اخترعوه من صنائع ونظم لأنه في نظره أن الأوروبيون قد نظموا جندهم ليضربوا به الإسلام وأهله منطلقاً بأمر الله تعالى على إعداد العدة لمواجهة أعداء الإسلام².

سنة 1826 ألف ابن العنابي كتابه "السعي المحمود في نظام الجنود"، فسبق بذلك الطهطاوي و معاصريه من دعاة النهضة الحديثة بنحو خمس سنوات وان لم يتح للطهطاوي وغيره، فبدأ متقدماً عليه في هذه الدعوة للأخذ بأسباب القوة المادية من الغرب³.

عنوان كتابه يدل على محتواه فهو كتاب في سياسة الرعية ونظام الدولة وفي وجوب تحديد الجند أو الجيش الإسلامي وإعدادهم إعداداً قوياً لحماية الأوطان من الأخطار الخارجية، فقد ألف كتابه هذا قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر قاصداً بذلك تقوية الجيوش الإسلامية للحيلولة بين هؤلاء المستعمرين والبلاد الإسلامية لكن لا حياة لمن تبادي.

يعتبر ابن العنابي من المفكرين المصلحين في العصر الحديث حيث كانت له رؤية واضحة المعالم حول

¹ - فوزية لزغم، المرجع السابق، ص 75.

² - نفسه، ص 75.

³ - أحمد سلطاني، "من قضايا الإصلاح عند المفتي ابن العنابي (1775م-1850م)"، مجلة العبر للدراسات التاريخية الاثرية، مج 1، ع 2، جامعة ابن خلدون تيارت، سبتمبر 2018م، ص 300.

مشروع الإصلاح¹ والحادثة²، للخروج بالعالم الإسلامي من واقعه المتري ومسايرة ما توصلت إليه الأمم الأوروبية في شتى المجالات، فقد عاش فترة تعد من أخرج الفترات التاريخية لا في الجزائر فحسب ولكن في الدولة العثمانية و العالم العربي و الإسلامي قاطبة، فقد عاصر الثورة الفرنسية 1789 م وما نتج عنها من أحداث مست جوانب متعددة من الحضارة الإسلامية وما كان لها من تأثير كبير في تشكيل ثقافة العالم المعاصر، وعاصر كذلك حروب الجزائر البحرية مع الإنكليز والفرنسيين و الإسبان كما عاصر احتلال الجزائر سنة 1830م.

كما شهدت حروبا داخلية كثورة الطريقة الدرقاوية وثورة ابن الأحرش، إضافة إلى النزاع الخطير والطويل بين السلطان محمود الثاني وفرقة الإنكشارية الذي انتهى بالقضاء على هذه الفرقة سنة 1826م، ويعود سبب النزاع إلى رغبة السلطان في إدخال النظم الأوروبية الحديثة على جيشه بينما كانت الفرقة الإنكشارية تعارض ذلك بدعوة انه مخالف للشريعة الإسلامية³.

في حين ان السلطان العثماني كان لا يزال يواجه هذه المعارضة في الأخذ بالنظم الأوروبية فإن محمد علي، كان قد تجاوز هذه المرحلة وبدأت تظهر النتائج الايجابية في تقليد الأوروبيين من خلال انتصاراته الخارجية وتقدم نظامه في الداخل⁴.

ومن ثمة وجد ابن العنابي الجو الملائم لطرح أفكاره التي تناولها كتابه والتي تقوم على أساس الآخر بما يعود بالنفع على المسلمين ما لم يخالف نصوص الشريعة وهو الأمر الذي اختلف فيه مع خير الدين التونسي، الذي كانت نظرتة للأخذ من الأوروبيين أوسع ولا يرى بأساً في الأخذ من الغرب جميع ما يساهم في نهوض الأمة الإسلامية ما لم يخالف الدين الإسلامي وعلى سبيل ذلك التنظيمات السياسي.

¹ - الإصلاح: يعرف الإصلاح على أنه تراكم لسلوكيات إنسانية وحضارية في جوهر الفرد، كما يعد عملية تعبير هادفة إلى إحداث تغيير واقعه وسط مجتمعه في مناحيه المختلفة وفق برنامج مسطر من قبله، يرمي من خلاله إلى تحقيق الغايات بأساليب ومناهج حضارية أساسها التفاعل بين المصلحة والمجتمع. أنظر: قاسي فريدة، المرجع السابق، ص 146.

² - الحادثة: يعرفها محمد أركون في معرض التفريق بين التحديث والحادثة والحادثة موقف للروح أمام مشكلة المعرفة، إنها موقف للروح أمام كل المناهج التي يستخدمها العقل للتوصل إلى معرفة ملموسة للواقع. أنظر: سعد بوترة، "الحادثة مفهوم وظهور الدعوة لها في الفكر العربي المعاصر"، مجلة المدونة، مج 5، ع 1، جامعة يحي فارس، المدينة، 2018م، ص 4.

³ - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 16.

⁴ - فوزية لزغم، المرجع السابق، ص 76.

ظهرت أفكاره الإصلاحية جلياً في الميدانين السياسي والعسكري خاصة، وهما المجالين الذين استشرى فيهما الفساد في أجهزتهما المختلفة العسكرية والإدارية يضاف إلى ذلك الفساد الاجتماعي والاقتصادي الذي استولى عليه النفوذ اليهودي¹.

فبرزت رؤيته السياسية العسكرية والفكرية في إصلاح الجيش باعتباره قوة دفاعية، وإصلاح شؤون الحكم من خلال الثقة زرع بين الحاكم والمحكوم كضمان لاستمرار الحكم فالرعية تعتبر الركيزة الأولى لكل نظام.

حيث يجب على الأمة الإسلامية ألا تكتفي بمعرفة العلوم اللغوية والمعارف الدينية فقط بل يتوجب عليها دراسة كل العلوم المؤدية إلى النهضة والتقدم، مع ضرورة تقليد غير المسلمين في الأمور الحربية والصناعية والعلوم العملية.

لكنه لا يرى ذلك بخصوص التشريع والعلوم السياسية فالأخذ من الأوروبيين لا يكون إلا في بعض الأمور الدنيوية لأنه في نظره الشريعة الإسلامية فيها ما يغني المسلمين على بعض القوانين الأوروبية الوضعية فهو يقول: "إن ما عليه الكفرة من سياستهم العقلية فنحن في غنى عنه"².

وعلى الحاكم أن يأخذ بالتعاليم الدينية والأخلاقية كما أكد على مبدأ المشورة وعدم الاستبداد بالرأي أو الحكم، على أن تكون هنالك مجالس استشارية مكونة من العلماء وأصحاب الرأي في الأمة هذه المجالس تشارك الحاكم في اتخاذ القرارات مستشهداً بذلك بنصوص من الكتاب والسنة التي تدعوا إلى ذلك.

وقد جعل من العدل وقوة الجيش وصرف المال فيما يفيد الناس عامة أسس للحكم الصالح محذراً في الوقت نفسه من التبذير والإسراف في صرف أموال الأمة وجمعها بطريقة الإكراه وأخذها ممن يعجز عن دفعها، فالأمور الحربية التي دعا ابن العنابي لاكتسابها إنما هي قوة مادية ومعنوية لردع الأعداء والخط من شأنهم، معتبراً أن كل ما يفيد المسلمين ويرفع من شأن الدين فهو شرعي ولو جاء من الأوروبيين وإن كان مبتدعاً غير معروف لأهل الإسلام³.

¹ - فوزية لزغم، المرجع السابق، ص76.

² - نفسه، ص76.

³ - نفسه، ص76.

نستنتج مما سبق السيرة الذاتية لابن العنابي أن أفكاره الإصلاحية قد استمدتها من المرجعية من الدينية حيث نجده يستشهد بنصوص من القرآن والسنة وسير السلف الصالح بحكم تفقهه في الدين وطبيعة الثقافة التي تلقاها في حياته، وأنه أعطى رؤيته الإصلاحية ومجالاتها قصد تجاوز الوضع المزري¹.

3- إجازاته العلمية

كان لابن العنابي في مجال التدريس بالجامع الأزهر قيمة كبيرة فقد تميز بمنح الإجازات العلمية لتلاميذه سواء داخل مصر أو خارجها (تونس)، كما قام بمنح إجازة لعدد من العلماء بطلب منه وتقديراً للعلامة المفتي بن العنابي وتكوينه العلمي، فقد شملت إجازاته التي تم تحقيقها من طرف الذين ترجموا، له ستة إنجازات وهناك العديد منها في المكاتب المصرية والتونسية².

الإجازة الأولى فكانت "للشيخ أحمد بن حسن الرشيدى"، فقد جاء فيها مايلي: ".... وقد سمع علي: الشاب النجيب: أبو العباس أحمد بن حسن بن علي الرشيدى الشافعي، المعروف بصويغ، حفظه الله بمنه أوائل الكتب الستة، وأجزته بها وأن يرويها عني بإسنادي المقرر، وبكل ما صحت لي روايته ومن ذلك الكتب التي تضمنها معجم الحافظ العسقلاني، إجازة مطلقة علامة بشرطها المعلوم لأهله وقد سمع المذكور مني حديث الرحمة..." فقد يبدأ "ابن العنابي" إجازاته هذه بتعريف بنفسه وما أخذه عن شيوخه وأساتذته، وما سمعه منه تلميذه. وفي الأخير يختتمها "قال ذا بفمه، وكتبه بقلمه، الفقير إليه سبحانه: محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري الحنفي، غفر الله له ولوالديه، وأحسن إليهما وإليه، بتاريخ أواسط شعبان سنة 1241هـ" ثم يضع ختمه³.

أما الإجازة الثانية فقد كانت لتلميذه "الشيخ إبراهيم السقا"، فقد جاء في إجازته له: "وقد قرأ علي الشيخ الإمام الفاضل ابن الحسن المعروف بالسقا... جل صحيح البخاري، وسمع الشيخ الإمام أبو العباس أحمد بن يوسف الفتياي إمام الجامع الأزهر والشيخ الإمام أبو زيد عبد الرحمان بن عثمان الدمياطي المراوي الشافعي... والشيخ أبو الحسن إبراهيم بن حسن الكردي الشافعي فقد يشهد "ابن العنابي أن "إبراهيم" "السقا" قرأ عليه صحيح البخاري وذلك بحضور بعض العلماء الذي تم ذكرهم"، وهنا نلاحظ أن ابن

¹ - فوزية لزغم، المرجع السابق، ص 77.

² - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 42.

³ - محمد زياد بن عمر التكلة، مجموع فيه إجازات من علامة الجزائر ابن العنابي الأثري 1189هـ-1267هـ، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، 2008م، ص 42.

العنابي في كتابته لإجازته يذكر كل صغيره وكبيره تتعلق بتلميذه الذي منحه الإجازة مع ذكر كل مروييات الشيخ العنابي عن والد وجده، وهما من بين أساتذته الأوائل، أما خاتمة الإجازة كما أشرنا إليها سابقا مع وضع تاريخ الإجازة خامس شعبان سنة 1242هـ¹.

وهناك إجازة أخرى للشيخ "إبراهيم السقا" فقد جاء فيها: "وأجزت بذلك الشيخ الفاضل إبراهيم بن علي المشهور بالسقا وسائر مروياتي إجازة عامة شاملة لهذا الثبت وغيره بتاريخ ثامن عشرين رجب سنة 1243هـ وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله".

ومن الملاحظ هنا أن هذه الإجازة منحها ابن العنابي لتلميذه إبراهيم السقا بعد تلخيصه لكتابه "السعي المحمود" ونشره ليتداول بين أهالي مصر².

كما منح إجازة " لمحمد بن علي الطحاوي بثبت الجوهري وغيره وهناك أيضا إجازة أخرى منحها للشيخ عبد القادر "الرافعي والتي جاء فيها ما يلي: "وقد سمع مني أوائل الكتب التي تضمنتها رسالة الشيخ البصري وثلاثة أحاديث من جامع مسانيد الإمام أبي حنيفة، وأجزته أن يروي كل ذلك عني، وكل ما تجوز عني روايته من سائر مروياتي". " فابن العنابي "أجاز الشيخ عبد القادر الرافعي" كما نلاحظ إجازة عامة شملت قراءه عليه من كتب بالحديث وغيره، وختمه إجازته كالعادة بتاريخ الإجازة بأواخر رمضان سنة 1342هـ³. وقد كان التلاميذ يجتمعون في حلق التدريس في مصر حول شيخهم "ابن العنابي" كثيرون، ولكننا أخذ بعضهم والتي تم تحقيق إجازاتهم⁴.

فمن بين الذين منحهم إجازة في مدينة تونس وكان ذلك بطلب منه وهو "الشيخ محمد بيرم الرابع" فقد جاءت في إجازته كالعادة أنه يجيزه بكل ما أجازني به مشايخي جميع من أدرك حياتي "معناه أنه أجاز به بكل ما أخذه بن العنابي من المشايخ الذين كانوا يحبانه وأجازوه⁵.

¹ - محمد زياد بن عمر التكلة، المرجع السابق، ص 42.

² - نفسه، ص 42.

³ - " وقد سمع علي الشيخ الفاضل أبو عبد الله محمد بن علي الطحاوي جل صحيح البخاري وأجزته بما فيه، وبسائر مروياتي، التي من جملتها ما سطر في هذا الثبت ، نفسه ، ص 43.

⁴ - نفسه، ص 43.

⁵ - نفسه، ص 43.

ثالثاً: وظائفه ومراسلاته

لطالما كانت الجزائر والدّة للشخصيات العظيمة والعلماء المفيدین أمتهم فالعالم الحق هو من يهتم بقضايا أمته وهكذا كان حال الشيخ محمد بن العنابي الذي اهتم بقضايا أمته وحمل هم وطنه بقلمه ووظائفه في شتى الميادين.

1- وظائفه

أ- في الجزائر:

- القضاء والإفتاء:

أما وظائفه فكان أولها منصب القضاء الحنفي وهو من المناصب الخطيرة والهامة التي تتطلب من صاحبه سعة العلم والاطلاع، فقد ولاه الداوي أحمد باشا¹ هذه الوظيفة سنة 1208هـ وهو دون العشرين وبالضبط 18 سنة، بالإضافة إلى مهمة ثانية وهي الكتابة إلى باي تونس²، ولم تمض سنتان حتى استقال من منصبه، أي سنة 1210هـ، ومرد ذلك، كما يقال، أنّ داي الدولة الجزائرية الداوي حسن باشا (1791م-1797م) تدخل في شؤون القضاء، حيث ألزمه بأمر ينطوي على مخالفة للشرع، فرفض، وهذا يدل على ورعه واستقلاله وقوته في قول الحق، وبعد أشهر وفي نفس السنة وفي عهد الداوي عمر باشا ولي القضاء ثانية وبقي فيه ثلاث سنوات، أي إلى سنة 1213هـ، وهي السنة التي توفي خلالها مفتي الجزائر محمد بن عبد الرحمن، فتولى مكانه، وذلك إلى سنة 1236هـ³.

¹ - أحمد باشا: وما يدل على إكرام الداوي له وتبجيله أنه لما وصل إلى القصر الدايلكي لملاقاة الداوي فصادف دخول المفتي الجزائري الحنفي ابن العنابي في الدخول، فلم يعجب ذلك المفتي كونه خالف بذلك الرسوم، فبلغ ذلك الداوي فقال انه يستحق التقدم عليه، وعزل المفتي وولاه مكانه مفتيا حنفيا. أنظر: أجقو علي، مرجع سابق، ص 27.

² - باي تونس: ولد سنة 1712م ووالده حسين بن علي وأمه جنوية، نشأ في بلاط باردو وترى تربية علمية وعسكرية، فر إلى الجزائر عند مقتل أبيه سنة 1740م، قاد إلى جانب أخيه محمد الرشيد حملتين ضد علي باشا بمساعدة داي الجزائر، تولى السلطة بعد وفاة أخيه الرشيد إلى أن توفي سنة 1782م. أنظر: الشافعي درويش، "علي باي الحسيني التونسي 1759م-1782م"، مجلة مدرات للعلوم الاجتماعية والانسانية، ع 03، جامعة زيان عاشور، الجلفة الجزائر، جانفي 2021 من ص 726.

³ - أبو القاسم سعد الله، "الجدید عن ابن العنابي، مجلة الحوليات"، مج 1، ع 1، جامعة الجزائر، 1986م، ص 48.

- السفارة:

وكانت للعنابي مراسلات كثيرة لكثرة مراسليه الذين يطلبون منه الرأي أو الفتوى أو الإجازة، أو غيرها من المراسلات كما اتسمت شخصيته بالروح الدينية والفكر الاقتصادي والسياسي، فكان له دوره الديني والسياسي، وقد لعب دوره الأول وهو يباشر وظيفة الإفتاء ويتصدر للتدريس ويمنح الإجازات لتلاميذه والمعجبين بعلمه، أما الدور السياسي فيتمثل في صلته بدايات الجزائر وفي موقفه من الاحتلال الفرنسي لبلاده، إذ حمل مع عالم آخر هو مفتي المالكية ابن لكبابي لواء المقاومة الثقافية للاحتلال الفرنسي، الذي عندما عجز عن اسكات صوتيهما الذي كان يصدح بالحق أمام نظام محتل وحاكم جائر وأيضاً اخفاقه في احتوائهما بالمناصب وأنواع الإغراءات الأخرى، أقدم على نفيهما وإبعادهما من الجزائر إلى مصر، حيث كلفه الداوي بسفارة للمغرب الأقصى والتي نجح فيها نجاحاً باهراً أكسبته مكانة كبيرة في القصر الدايلكي، كما أرسله الداوي سفيراً في مهمة أخرى إلى عاصمة الخلافة الأستانية بعد المواجهة بين الأسطول البحري الجزائري والأسطول الإنكليزي سنة 1816م والتي شهدت خسارة بعض قطع الأسطول الجزائري ليشرح للخليفة أسباب هذه النكبة ويطلب منه العون، كما تولى أيضاً ووظائف أخرى كנקابة الأشراف¹.

ب-خارج الجزائر:

-الإفتاء بالإسكندرية بمصر:

ما غادر الجزائر إلى مصر مضطراً لا مخيراً بسبب مضايقات السلطات الاستعمارية وتحريض عملائها، استقر به المقام في الإسكندرية والتي سبق له الإقامة بها من قبل لمدة تسع سنوات حاجاً، أستاذ وإماماً (1235-1244هـ / 1820م-1829م)، وقد سمع به حاكم مصر محمد علي وكان قد أطلع على كتابه "نظم الجنود" فرحب به، وخصه باهتمام لكفاءته العلمية وجديته، وروحه الإسلامية، وإخلاصه في رأيه وعمله فأسند إليه وظيفة الإفتاء الحنفي في الاسكندرية بعد وفاة مفتيها الشيخ خليل السعران وحينما تولى ابن العنابي منصب الإفتاء، كانت الإسكندرية كما غيرها تعاني مشاكل عدة سببها كثرة المفتين على اختلاف المذاهب، مما تسبب في حدوث فوضى في مجال الفتوى، فتضايق محمد علي أواخر أيامه من هذا

¹ - أبو القاسم سعد الله، "الجديد عن ابن العنابي، المرجع السابق، ص48.

الأمر، وأمر ابن العنابي أن يؤلف كتاباً يرجح من أقوال الأئمة فيه ما يجمع الأربعة ويُعتمد في القضاء، فألف كتابه "صيانة الرياسة في القضاء والسياسة"، الذي كتب منه 10 كراسات¹

وحينما يلقي العالم المصلح الخطوة التي لقيها ابن العنابي كثيراً ما يتعرض هذا العالم المصلح للابتلاءات والمكاييد، ولا سيما إن عظمت رتبته في العلم، وكان قوياً في موقفه وإنكاره على المتسترين والمتاجرين بالدين لمصالحهم الخاصة.²

وحدثت الرد السياسية الأكبر والحنة الأعظم بتولي عباس الحكم مكان أبيه سنة 1266هـ وازدادت في عهد ابنه سعيد من بعده بحيث أجهضت حلم الرجل فقد سعى بعض المشايخ من أصحاب المصالح الشخصية في إبطال هذا الكتاب وما زالوا يكيدون له عند الحاكم حتى نقم عليه وعزله سنة 1266هـ، موجهين له اتهامات عديدة، منها اتهامه بتقليد الكفار وبأنه زنديق خارجي وهي من التهم التي الصقت بأمثاله من المصلحين الداعين للسنة والمنكرين المحاريين للمتسترين بالدين والمرترقين من الفتاوى، فهمش وأهين، كل بقصد المحافظة، كما يقول عبد الحكيم بك، على: "ارتزاقهم من الفتاوى على الاختلاف في المذاهب وأقوالها"، وولّى مكانه تلميذه الشيخ محمد البنا، فأقام ابن العنابي معتزلاً في بيته لا يستقبل إلا بعض المقربين منه وتلامذته، كأبناء بلده الجزائريين العلماء الذين هربوا من بطش الاستعمار الفرنسي كمحمد الأرنؤوط الفقيه الحنفي ومصطفى بن الكبايطي، لدراسة مسائل علمية أو لفتوى دينية حتى وفاته. ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن المفتي ابن العنابي كان على تواصل مع ابن لكبايطي مصطفى، الذي تولى هو الآخر عدة وظائف منها القضاء والإفتاء المالكي في عهد الاحتلال، وقد وقف بن لكبايطي موقف المعارض للاحتلال فيما خص ضم الأملاك الوقاف إلى الأملاك العمومية متهما الفرنسيين بعدم احترام لتعهداتهم، ومن ثمة ضيقت عليه إدارة الاحتلال وحاولت اغتياله كما عملت على نفيه وسمحت له سلطات الاحتلال بالعودة ثانية ضانة انه سوف يتوقف عن معارضته لها، ولما يئست أصدرت امرا بنفيه إلى مصر وكان ذلك عام 1843، وفي منفاه الاضطرابي التقى بابن بلاده ابن العنابي الذي أكرم وفادته، بل وتدخل لدى محمد علي حاكم مصر فأقر له راتباً شهرياً³.

¹ - أجقو علي، المرجع السابق، ص14.

² - نفسه، ص14.

³ - نفسه، ص15.

- التدريس بالجامع الأزهر بمصر:

إلى جانب توليه الإفتاء استمر في ممارسة التدريس في الجامع الأزهر حيث التف حوله الطلبة والمتقنين المصريين والتونسيين، وسواهم، مستفيدين من عمله وفقهه ورأيه فأخذ عنه علماء من أهل الإسكندرية ومن خارجها، مثل الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ الذي زاره سنة هـ، وكذا محمد القاوقجي و محمد بيرم التونسي و محمد بن علي الطحاوي المصري الذين أجازهم، أخذ عنه: أحمد التميمي الخليلي مفتي القاهرة، و محمد البنا مفتي الإسكندرية، وعلي البقلي، و خليل الرشيد، و محمد الكتبي، و محمد الملاح الإسكندري¹.

والحقيقة أن ابن العنابي لم يكن مجرد عالم بالفقه والحديث وما تصل به من العلوم الشرعية الأخرى، بل كان أيضاً دبلوماسياً ناجحاً وخبيراً محترفاً في شؤون العلاقات بين الدول².

2- مراسلاته

كانت شهرة ابن العنابي سبباً في كثير من المراسلات التي جرت بينه وبين مثقفي عصره، وقد اختلفت أسباب المراسلات فهناك الاستفتاءات التي يحاول أصحابها الحصول على فتوى دينية في قضية من القضايا التي كانت تعرض لهم، وكان هو يجيب السائلين بصدر رحب، ويث علمه بسخاء فيفيض في عرض القضية ويقلبها على جميع وجوهها ويأتي لها من الاستشهادات ما يوضح كل جوانبها وهناك الاستجازات التي يطلب أصحابها منه أن يمنحهم إجازة بمروياته في الحديث والفقه ونحوهما، وكان الطلب يكتب أحياناً نثراً وأحياناً شعراً، وأحياناً بكليهما وعادة ما كان المستجيز يشيد بابن العنابي وينوه بمعارفه وبأسرته وأخلاقه. وقد أشرنا إلى قصيدة الشيخ مصطفى بيرم في هذا الصدد.

وهناك مراسلات أخرى أدبية جرت بينه وبين بعض الأدباء من ذلك أن إحدى الوثائق تتحدث عن أن ابن العنابي كتب كتاباً ضمنه السلام على بيرم، وجعل في هذا الكتاب أبياتاً نصها:

بَنِي بَيْرَمَ زَانِ الْبَسِيطَةِ ذَكَرَهُمْ
فَمَا لَهُمْ فِي الْمَشْرِقَيْنِ نَظِيرٌ³

¹ - أجقو علي، المرجع السابق، ص15.

² - نفسه، ص16.

³ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد ابن العنابي، المرجع السابق، ص49.

غير أننا لم نعثر على الكتاب المذكور لأن ناقل النص اكتفى بالأبيات فقط ولو نقل النص النثري أيضاً لعرفنا منه لوناً آخر غير الفقه ونحوه من كتابات ابن العنابي، ومن الواضح أن الأبيات المذكورة تنوه بال بيرم عامة وتخص أحدهم دون الإفصاح عنه، ولعله هو مُجَّد بيرم الرابع الذي ترأسل معه في مناسبات أخرى، كما سنرى وكان كلاهما يردد عبارات الوداد والوفاء ونحوهما، مما يدل على رسوخ الصداقة بينهما، ومهما كان الأمر فإن مُجَّد بيرم الرابع قد رد على الكتاب بكتاب مثله وعلى الأبيات بأبيات مثلها في القافية والروي، وهي تبرهن على رأي مُجَّد بيرم في صديقه ابن العنابي، وهي :

هُمَامٌ لَهُ حَوْلَ السَّمَاطِينَ مَنْزِلُ أَمَامٌ بِتَحْقِيقِ الْعُلُومِ خَبِيرٌ

بِهِ كَسَى الْإِسْلَامَ حِلَّةٌ مَجْدُهُ وَأَضْحَى لَهُ فَخْرٌ بِهِ وَسُرُورٌ

ولو قيل من حاز العلوم بأسرها إليه جميع العلمين تشير وهذه شهادة من أحد العلماء البارزين وهي تصدق على رأي الآخرين في ابن العنابي، ويكاد الجميع يصفه بهذه الأوصاف التي ذكرها مُجَّد بيرم، ويبدو أن المراسلات قد استمرت بين الرجلين حتى بعد غربة ابن العنابي في مصر ونفيه من الجزائر، ورغم أننا لا نجد حتى الآن رسائل ابن العنابي لمحمد بيرم فإننا وجدنا رسالة وجهها هذا إلى صديقه في الإسكندرية، قبل وفاته بقليل، يذكر بالعهد ويوصيه بأحد الفضلاء المغاربة ليتدخل له في مصر ويساعده على قضاء مآربه، وقد جاء في هذه الرسالة التي كتبت في سنة نيف وستين بعد المائتين ما يلي : "فها نحن نجزي أشرف صنوف ألوانه، إلى حضرة وحيد دهره وزمانه العالم الكبير، والرئيس التحرير، والمقدم في الفتية الحنفية بالمشرق بلا نكير شيخ الإسلام أبي عبد الله سيدي مُجَّد بن محمود العنابي المفتي الآن بثغر الإسكندرية .." ومما يلفت النظر ما كتبه مُجَّد بيرم فيها عن عهود المودة القديمة¹ المبنية على أساس غير واه ... والمظنون أنها من جهتك على هذا المنوال ولأهمية هذه المراسلة سنوردها في آخر الكتاب ومن المحتمل جداً أن يكون لابن العنابي مراسلات أخرى من هذا النوع، سواء مع علماء وأدباء تونس أو غيرهم، وستكشف الأيام عن العديد من هذه المراسلات².

ومن إخوانيات ابن العنابي ما عثرنا عليه من أنه طلب، أثناء وجوده بتونس، تقريظاً من مُجَّد بيرم لكتابه "شرح الدر المختار" الذي قد خطا فيه خطوات موفقة، فقد وجدنا في آثار مُجَّد بيرم تقريظاً للكتاب المذكور

¹ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي مُجَّد ابن العنابي، المرجع السابق، ص50.

² - نفسه، ص50.

أثبت فيه صاحبه أن ابن العنابي هو الذي أطلعه على تأليفه وطلب منه، حسبما هي المعمول بها عندئذ أن يقرظه ففعل، ومما جاء في النص المذكور قول مُجَّد بَيرم قد أطلعني صاحب هذه الأجوبة يعني أجوبة ابن العنابي على أسئلة الرومي على قطعة من شرح له على الدر المختار نهايتها باب الوتر والنوافل والتمس مني كتابة تقرّظ عليه بعد التأمل فيه على ما هو الرسم بين الإخوان، ومن سالف الزمان إلى هذا الأوان، فكتبت عليه ما نصه ثم نوه بَيرم بالجزء الذي اطلع عليه من شرح الدر المختار ومدح تبويبه وعمقه وطريقته وأشاد بصاحبه واعتبره العلم الأوحده والطود المفرد كما وصف بيت آل العنابي بأنه بيت علم دعائمه أعز وأطول وأساسه أحكم وأكمل¹.

ولم يكتف الشيخ مُجَّد بَيرم بتقرّظ الكتاب نثراً بل قرظه شعراً أيضاً، فأضاف إلى ما تقدم قوله ولما جرى القلم النثري بما هو كائن، وكان الشعري موازاً (كذا) له غير مباين تحركت حميته للكتب عن مقتضى الحال فأعرب عما في الضمير وقال:

أَكوكِبٌ لآخِ أَمِ بَدَرِ التَّمَامِ بَدَا أَمِ لَامِعِ الْحَقِّ فِي أَفْقِ الْهَدَى صَعَدَا

وهي قصيدة في أحد عشر بيتاً، وجاء في مصدر آخر أن لابن العنابي تقرّظاً لترجمة كتاب (كلستان) لسعدي الشيرازي التي قام بها جبريل المخلع المسيحي من الفارسية إلى العربية، وهذا نصه :

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى لما عرض علي ذلك المعرّب، الذي أبدع مترجمه وأعرب، وقد تصفحت وجنات طروسه الناظرة، وعانيت حلي عرائسه العاطرة التي أبرزها من خدورها جبرائيل، وأعرب سر مكنونها بعبارة أحلى من السلسبيل، أنشدت قائلاً:

تَنسُمُ رَوْضُ الْوَرْدِ عَنْ كَلِمِ تَسْرِي كَنَسْمَةِ نَفْحِ الطَّيْبِ فِي غَرَةِ الْفَجْرِ²

وَأَعْرَبَ جِبْرَائِيلُ عَجْمَةَ لَفْظِهِ فَأَعْرَبَ عَنْ فَنِّ الْبَلَاغَةِ وَالشَّعْرِ

كَسَاهُ حَلَى لَفْظِ أَنْيَقِ مَهْذَبٍ وَأَبْدَعَ فِي الْإِنْشَاءِ بِالنَّظْمِ وَالنَّثْرِ

حَبَاهُ إِلَهُ الْخَلْقِ حَسَنَ جَزَائِهِ فَقَدْ قَرَّبَ الْأَقْصَى وَتَرْجَمَ عَنْ سِرِّ

وكان هذا التقرّظ بتاريخ غرة جمادى الثانية من سنة 1259 من تاريخ عبد الحميد بيك - مخطوط - .

¹ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي مُجَّد ابن العنابي، المرجع السابق، ص50.

² - نفسه، ص ص50-51.

ولا نستعد أن يكون لابن العنابي مراسلات أخرى مع علماء آخرين أمثال حمدان خوجة بعد نفيهما من الجزائر وقد تكون هناك علاقات ودية بينه وبين مصطفى بن الكبابطي الذي لحقه منفيًا إلى الإسكندرية، ولعل له غير ذلك المراسلات مع غير هذا وذاك. وقد أبي أحد الشعراء المصريين، وهو مُجدّ عاقل صاحب ديوان لسان الشباب، إلا أن يؤرخ وفاة ابن العنابي في الإسكندرية بقوله وأرخت وفاة الشيخ الجزائري مفتي الإسكندرية المتوفى 267 بقولي اليوم رمس مفتي إسكندرية¹.

¹ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي مُجدّ ابن العنابي، المرجع السابق، ص52.

خلاصة الفصل:

نستنتج من خلال هذا الفصل أن ابن العنابي كان شخصية مرموقة بين قومه وعصره، ويمكن تقسيم دوره إلى دورين الدور الديني فقد لعبه بممارسته وظيفة الإفتاء وتصدره للتدريس ومنح الإجازات لتلاميذه، والدور السياسي فيتمثل بصلته بدايات الجزائر والمهمات السياسية التي وكلت إليه، بالإضافة إلى دوره الفكري وهو الذي يظهر جليا فيما طرحه في كتابه "السعي المحمود" من آراء في الحضارة الغربية وضرورة أخذ المسلمين منها.

الفصل الثاني

أوضاع الجزائر خلال العهد العثماني

وجهود ابن العنابي الإصلاحية

أولاً: تردى أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني

ثانياً: جهود ابن العنابي لإصلاح أوضاع الجزائر

تمهيد

كانت الدولة العثمانية في بداياتها تحتل مكانة دولية مرموقة، ووصولاً إلى القرن الثامن عشر بدأت تظهر عليها علامات الضعف والانحيار وتتوالى عليها الهزائم و انعكس ذلك على إيالاتها و منهم الجزائر التي راح علماءها يفكرون في إصلاح أوضاعها وفي أوائل القرن التاسع عشر وصل الضعف بالدولة إلى أشده بينما قوت شوكة العالم الغربي، وفي هذه الظروف ظهر علماء و شخصيات متشعبة بالغيرة على الوطن و الأمة، وشاركوا في ميادين عديدة ثقافية ودينية و حتى سياسية ولعل أبرزهم الشيخ مُحمَّد ابن العنابي وهذا ما سوف نتناوله في هذا الفصل.

أولاً: تردّي أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني

شهدت الجزائر بعد ارتباطها بالدولة العثمانية العديد من التغيرات والتطورات في شتى الميادين سياسياً واقتصادياً واجتماعياً نتيجة إرتباطها بالدولة العثمانية، فمن الناحية السياسية قسمت الجزائر إلى مقاطعات إدارية¹، أما من الناحية الإقتصادية فعرفت دخول العديد من الصناعات والحرف وتطور مجال التجارة، وكذلك حدوث تغيرات في البنية الإجتماعية كنتيجة لتوافد أجناس مختلفة إلى البلاد الجزائرية ومن الناحية الثقافية عرفت علماء مقتدرين. ولكن مع بداية القرن التاسع عشر بدأت تظهر عليها علامات الضعف والتدهور.

1- الأوضاع السياسية

كان لضعف دولة بني زيان، تأثير سيء على أوضاع الجزائر فانقسمت على نفسها إلى إمارات صغيرة مفككة متناحرة، أمثال: إمارة جبل كوكو ببلاد القبائل، الإمارة الحفصية بقسنطينة، وإمارة الدواودة بالحضنة والزاب، وإمارة بني جلاب بتقرت ووادي ريغ، وإمارة بني بزناسن وفقيق بالحدود الغربية، وإمارة الثعالبة بجزائر بني مزغنة ومتيجة، وشجع هذا التفكك الأسباب للقيام بغزو موانئها ومدنها الساحلية² والسيطرة عليها

¹ - أنظر الملحق رقم 04، ص 81.

² - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص9.

الفصل الثاني تردّي أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني وجهود ابن العنابي الإصلاحية

واحدة بعد الأخرى وفق مشروع استعماري واسع يهدف إلى استعمار المغرب العربي كله، ممهدين له بحركة جوسسة واسعة¹.

وعلى إثر هذا، وتفاقم الخطر الاسباني على المدن الجزائرية دفع الجزائريين إلى الاستنجاد بالأخوين عروج² وخير الدين بربروس³، لإنقاذ الجزائر فألحقت الجزائر بالدولة العثمانية سنة 1518م⁴.

قسمت الفترة العثمانية في الجزائر إلى أربعة مراحل أخذت تسميتها من اللقب الذي اشتهر به حكام كل فترة، وهي مرحلة البايلربايات التي تبدأ بتاريخ إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية عام 1518م إلى غاية 1587م، وتعيين خير الدين بايلرباي (حاكم الحكام) عليها من قبل السلطان العثماني مع تزويده قوة عسكرية وأسلحة ذخائر، وقد جاء هذا التعيين ليدعم سلطة خير الدين في البلاد، وقد اتسم عهد البايلربايات بعدة خصائص أهمها أن معظم ولاية هذا العهد كانوا اقوياء، ومعظمهم من طائفة الرياس البحريين ومن رفاق خير الدين، وقد تم للجزائر في هذا العهد تحقيق وحدتها الاقليمية والسياسية، أما المرحلة الثانية عهد الباشوات 1587م إلى غاية 1659م، فقد شهد هذا العهد عدة أحداث خارجية التي تمثلت في بداية الصراع مع الدولة العثمانية ومواصلة الجهاد ضد القراصنة الأوروبيين في البحار خاصة ضد فرنسا،

¹ - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 9.

² - عروج: أروج بن أبي يوسف يعقوب التركي أو عروج بربروسة، (879هـ-924هـ) (1474م-1518م) يشتهر أيضا بلقب بابا عروج وعروج ريس أما بالتركية Oruç Reis قبطان وأمير مسلم اشتهر هو وأخوه خير الدين بجهادهما البحري في شمال إفريقيا وسواحل البحر المتوسط إبان القرن السادس عشر ميلادي، ولد في جزيرة ميديلي العثمانية، وعمل في شبابه في التجارة بين سلونيك وأغريوز، اتصل بالسلطان المملوكي قنصوه الغوري وجعله قائدا على الأسطول الذي قام بإنشائه لمحاربة البرتغاليين، إلا أنه تعرض لغارة كبيرة من فرسان رودس أدت إلى انتهاء هذا الأسطول قبل أن يكتمل. أنظر: مذكرات خير الدين بربروس، تر: محمد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، 2010م، ص 32.

³ - خير الدين: اسمه خضر، واشتهر بلقب بربروس، أي ذو اللحية الشقراء، وأطلق عليه سليم الأول لقب خير الدين، ولد سنة 1472م بجزيرة ميديلي بعد أخيه عروج بستين من أب تركي مسلم إسمه يعقوب آغا، كان يشتغل في شبابه في التجارة قبل إلحاقه بأخيه عروج، دخل أبواب البحر وعمره لا يتجاوز الثامنة. أنظر: قسول عبد الحميد، "إسهامات خير الدين بربروس (1518م-1543م) (924هـ-950هـ) في بناء كيان الدولة الجزائرية الحديثة وفق الدراسات الحديثة"، مجلة القضايا التاريخية، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، ع1، مج8، 2023م، ص 58.

⁴ - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 10.

الفصل الثاني تردّي أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني وجهود ابن العنابي الإصلاحية

أما الأحداث الداخلية فتمثلت في الصراع ضد إمارة قلعة بني عباس، وظهور عدد من الثورات الداخلية في العاصمة وشرق البلاد¹.

أما المرحلة الثالثة فتمثل عهد الأغوات الذي يبدأ من 1659م إلى غاية 1671م، من أهم الأحداث الخارجية في هذا العهد محاول ديوان الأوجاق² تحسين علاقاته مع فرنسا لكنها عارضت على ذلك، وواصل القراصنة الفرنسيون اعتداءاتهم على السفن والمراكب الجزائرية، أما داخليا فدخل حلبة الصراع ضد الجزائر إلى جانب الفرنسيين كل من القراصنة الإنجليز، والاسبان، والهولنديين، أما المرحلة الرابعة فتمثل عهد الدايات من 1671م إلى 1830م، قسم هذا العهد إلى ثلاثة مراحل بارزة، والتي منها مرحلة الدايات العاديين، أي الدايات الذين حملوا لقب الداى فقط، وعرف عهدهم استمرار إرسال باشوات ممثلين للسلطان العثماني إلى الجزائر، وهي الفترة الممتدة من عام 1671م إلى غاية رفض نزول آخر باشا عين من طرف السلطان العثماني على الجزائر عام 1711م³. في هذه الفترة، كانت كل من أمريكا وهولندا، والبرتغال، والنرويج، وفرنسا، تدفع ضريبة كل سنتين إلى جانب تزويدها بالأسلحة و البارود والهدايا، أما عن إسبانيا فقد كانت تقوم بحملاتها الصليبية على الجزائر مثل حملة عام 1770م، وحملة أخرى عام 1775م، التي أصيبت هي الأخرى بالفشل وظل الإسبان بمدينة وهران والمرسى الكبير، إلى غاية 1792م، وهنا تم تحرير مدينة وهران نهائيا منها⁴.

¹ - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص18.

² - ديوان الأوجاق: كانون، موقد، فصيل من الجند، مكان خاص بالخضراوات في البستان. أنظر: محمود عامر، "المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية"، مجلة الدراسات التاريخية، العددان 18-117، قسم التاريخ، جامعة دمشق، 2013م، ص10.

³ - عبد الكريم شوقي، "تطور الوضع السياسي والعسكري في عهد الدايات العاديين بالجزائر (1761م - 1611م)"، مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، ع2، مج7، جامعة الجزائر2، ماي 2023م، ص1.

⁴ - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص70.

الفصل الثاني تردّي أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني وجهود ابن العنابي الإصلاحية

ورغم ما حققه الدايّات من منجزات إلا أن الفترة الأخيرة من الحكم العثماني، تميزت بعدم استقرار جهاز الحكم، وكثرة الإضطرابات الناتجة عن الظلم الاجتماعي، والإستبداد السياسي وتجلّى هذه الإضطرابات في كثرة تعاقب الحكام الذين تميز جلهم بالضعف، وعدم الكفاءة¹.

لقد عرفت السلطة العثمانية ضعفاً كبيراً في أواخر عهد الدايّات بسبب حالة عدم الاستقرار التي نتجت عن كثرة الاغتيالات وكثرة المؤامرات فلقد شملت تلك المؤامرات السلطة، وأجهزة الحكم والموظفين الساميين والمساعدين لهم أيضاً وشهدت الأقاليم الإدارية الأخرى نفس الظروف من الفوضى، وعدم الاستقرار بحيث تعرض العديد من البايّات إلى القتل والثورات من طرف السكان بسبب سوء التسيير وتفاقمت الأوضاع من السوء إلى الأسوأ وهو ما أدى إلى اندلاع العديد من الثورات ضد الحكام الأتراك عبر مختلف أرجاء الجزائر.

فلقد اتسمت سياستهم بالتعسف وإرهاق الناس بالضرائب الذي أدى إلى ظهور الحركات التمردية الكثيرة التي تزعمها شيوخ القبائل ورجال الطرق الصوفية التي ازداد نفوذها وخطورتها؛ خصوصاً وأن حكام الأتراك لم يجدوا بداً من نقض عهده معهم بسبب الأوضاع الاقتصادية الصعبة، فهمشواهم وحاولوا استغلالهم مثل باقي الرعية².

كذلك كان للتدخل الأجنبي من طرف فرنسا وبريطانيا في عملية تغذية التمرد الأثر البالغ في حدوث ثورات ضد الحكم العثماني في الجزائر فقد عملت فرنسا على دعم وتشجيع القبائل الناقمة على السلطة العثمانية الحاكمة في الجزائر انطلاقاً من الشرق الجزائري وذلك من خلال مدّها بالأسلحة والذخيرة وعملية التحريض على الثورة والتمرد فكان دور قنصليتها التي كانت متواجدة في الجزائر الدور الكبير في هذا الأمر، كما أنه لا يمكن تجاهل الدور الذي قامت به تونس في الشرق والمغرب في الغرب في عملية تدعيم الثورات والتمردات ضد الحكام العثمانيين في الجزائر، رغم محاولة الدولة العثمانية التوسط من أجل فض النزاع لأكثر من مرة.

¹ - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص71.

² - بابه عائشة، الأوضاع السياسية في الجزائر في العهد العثماني 1519م-1830م، مجلة متون، ع4، مج:8، جامعة الدكتور مولاي الطاهر سعيدة، جانفي 2017م، ص22.

الفصل الثاني تردّي أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني وجهود ابن العنابي الإصلاحية

لقد عرفت الجزائر العثمانية في أواخر حكم الدايات أوضاعاً متردية سردتها الكتابات التاريخية سببها الرئيسي النظام السياسي الفاسد، فقد ساد الاستبداد المطلق في الريف والمدن، وأثر هذا الأمر على مستقبل البلاد في كافة نواحي الحياة¹.

شهدت الجزائر في أواخر العهد العثماني العديد من الاصطدامات بين حكام بايلك قسنطينة وبين الانكشارية راح على إثرها معظم البايات الذين حكموا بعد مقتل صالح باي، فمن بين 19 بايا حكموا في الفترة ما بين 1792م و 1826م قتل 13 بايا وعزل الباقي كما شهدت المنطقة ثورة محلية كبرى كادت أن تنهى الحكم العثماني بالبلاد قبل الاحتلال الفرنسي، وهى ثورة ابن الأحرش عام 1804م والتي تسببت في فوضى عارمة بالبائلك بعد قتل الباي عثمان كما أنها تسببت في المجاعة الكبرى التي ضربت البائلك في تلك السنة حتى صار السكان يقتاتون الدم والميتة وغير ذلك مما لا يباح اقتياته . كما أن قسنطينة قد تعرضت في هذه الفترة إلى حصار شديد قد دام شهراً كاملاً من طرف باي تونس حمودة باشا وكان سنة 1807م الأمر الذي زاد من تأزم الأوضاع العسكرية والاقتصادية ببائلك. فقد استمر تدهور الأوضاع في قسنطينة وأريافها حتى سنة 1808م².

ويرجع تدهور الأوضاع في الجزائر في بداية القرن التاسع عشر إلى سوء تصرفات الدايات مع قناصل الدولة الأوروبية في الجزائر، وتلفهه على المال، ومعاناة خزينة الدولة من أمور زيادة الأسعار في الغلاء وغلاء المواد المجهزة المستوردة، وبخس أثمان المواد الأولية التي يتم تصديرها، بالإضافة إلى صعوبة تنمية الموارد الداخلية للبلاد وتعدد الانتفاضات الشعبية والاعتيالات فلهذه الأسباب تمكن الجيش الفرنسي من محاصرة الجزائر واحتلال سيدي فرج يوم 14 جوان والاستيلاء على العاصمة 5 جويلية 1830م³

¹ - بابه عائشة، المرجع السابق، ص22.

² - مؤيد محمود حمد المشهاني، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518م-1830م، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، ع16، مج:5، جامعة تكرت، أفريل 2013م، ص9.

³ - بابه عائشة، المرجع السابق، ص23.

أما فيما يخص سياسية الجزائر مع الدول الأجنبية في هذه الفترة، فقد كانت كل من أمريكا وهولندا، والبرتغال، والنرويج، وفرنسا، تدفع للجزائر ضريبة كل سنتين إلى جانب تزويدها بالأسلحة و البارود والهدايا، أما عن إسبانيا فقد كانت تقوم بحملاتها الصليبية على الجزائر مثل حملة عام 1770م، وحملة أخرى عام 1775م، التي منيت هي الأخرى بالفشل وظل الإسبان بمدينة وهران والمرسى الكبير، إلى غاية 1792م، وهنا تم تحرير مدينة وهران نهائيا منها¹.

ورغم ما حققه الدايات من منجزات إلا أن الفترة الأخيرة من الحكم العثماني، تميزت بعدم استقرار جهاز الحكم، وكثرة الإضطرابات الناتجة عن الظلم الاجتماعي، والإستبداد السياسي وتتجلى هذه الإضطرابات في كثرة تعاقب الحكام الذين تميز جلهم بالضعف، وعدم الكفاءة وهذا بداية من 1792م إلى غاية 1830م².

2- الأوضاع الاقتصادية

أ- الزراعة

ان ما ميز المجتمع الجزائري في العهد العثماني هو كونه مجتمعا فلاحيا ، بحيث يقدر بعض المؤرخين نسبة سكان الأرياف بأكثر من 90% مع هذا، كثيرا ما تعرضت البلاد للمجاعات، نتيجة فترات الجفاف الدورية و غالبا ما كان الجفاف مصحوبا بغزو الجراد و انتشار الأوبئة وإتلاف المزروعات و الإتيان على الماشية والعباد، كما كانت الفلاحة تعاني من قساوة الطبيعة كانت تعاني أيضا من ضعف مستوى وسائل الإنتاج، التي لم تسع السلطة العثمانية لتطويرها إلا في أواخر القرن الثامن عشر لما أخذت موارد القرصنة تتراجع والحاجة لتصدير المنتجات الزراعية تزداد الشيء المشترك بين مختلف جهات البلاد هو الضعف الكبير في المستوى التقني الأدوات العمل الجميع يستعمل أدوات بسيطة واحدة مثل "محراث إفريقية الرومانية الذي

¹ - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص70.

² - نفسه، ص71.

الفصل الثاني تردّي أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني وجهود ابن العنابي الإصلاحية

لم يخضع لأي تعديل" و المنجل الذي يعود لنفس العهد و قنوات الري التي تعود إلى القرن الحادي عشر أما الماشية فقد عاشت على الطبيعة¹.

يعبر عن هذا الضعف لجوء الفلاحين إلى النظام المعروف بنظام الدورتين، بمعنى استغلال الأرض سنة وتركها تستريح في السنة الموالية وانتشار أراضي الحيازة الجماعية أو المشتركة التي تضمن العمل التعاوني أو التضامني لتعويض ضعف وسائل الإنتاج، وكانت العائلة تشكل الوحدة الإنتاجية و الاستهلاكية في الوقت نفسه، مع بعض الاستثناءات، حيث نجد بعض الأراضي تنتج من أجل السوق، كما هو الحال في فحوص مدينة الجزائر و الأراضي المحيطة بالمدن التي تنتج الخضر و الفواكه، لكن القاعدة العامة هي الإنتاج لإشباع حاجات أفراد العائلة، أما السوق فتأتي في المرتبة الثانية مرتبطة بتحقيق الفائض والحصول على منتجات صناعية أو زراعية ليست من اختصاص الفلاحين نتيجة اختلاف الظروف الطبيعية، وضرورة توفير ما يجب دفعه من ضريبة نقدية².

اشتغل سكان المناطق الجبلية وسكان السهول القريبة من المدن بزراعة الخضر والفواكه بصفة عامة، إلى جانب تربية الماشية، تنتج أرياف مدينة الجزائر الكثير من العنب مثلا، لأن السلطة كانت تسمح لكل فرد أن يشتري منه لصناعة الخمر، كما كانت هذه المناطق الجبلية و السهلية منتجة لزيت الزيتون و التين، هذا الأخير كان يجفف ويبيع في مختلف جهات البلاد، كما يُصدر منه نحو الخارج، مثل الزيت اشتغل سكان السهول العليا بزراعة الحبوب و تربية الماشية، كانت المنطقة الواقعة بين سطيف وقلمة المنطقة الرئيسية للحبوب، وكانت ناحية وادي زناقي أخصبها، وكانت المنطقة الواقعة بين الأطلسين التلي و الصحراوي وشط الحظنة والحدود المغربية هي المنطقة الرئيسية لتربية الماشية، خاصة الضأن منها، وقد شجع الباي مُحمّد الكبير إنتاج الحبوب في الناحية الغربية، بتشجيعه تصديرها نحو الخارج ومعلوم أن الاهتمام بالحبوب قد ازداد منذ عهد هذا الباي و الباي صالح في الشرق كما رأينا سابقا. انصب اهتمام سكان جنوب الأطلس

¹ -صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514م-1830م، دار الهوم، 2012م، ص336.

² - نفسه، ص336.

الفصل الثاني تردّي أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني وجهود ابن العنابي الإصلاحية

الصحراوي على تربية الماشية، من أغنام و إبل، وإنتاج التمور و اكتست تربية الإبل أهمية خاصة لكون هذا الحيوان وسيلة نقل ومادة استهلاك كانت الجزائر تربي أعدادا كبيرة منه¹.

كانت الجزائر تنتج محاصيل صناعية كالتبغ الذي كان يزرع في عنابة والجزائر، وكانت كمياته هامة وهو صالح للتدخين، كما أدخل الأندلسيون زراعة القطن وأنتجوه في مستغانم، يذكر حمدان خوجة أنه كان ينتج هو نفسه القطن في سهل متيجة و أن زراعته لم تكن معروفة لدى العرب، و أدخل الأندلسيون أسلوب تربية دودة القز و أنتجوا الحرير في القليعة و شرشال و أدخلوا العناب للبلاد وقد اشتهرت بإنتاجه ناحية عنابة، يذكر بارادي أن الأرز كان يزرع في مليانة و أنه شُرع في زراعته في وادي مينا في أواخر القرن الثامن عشر و أن إنتاجه يبلغ في المنطقتين ما بين 5 آلاف و 6 آلاف قنطار وأن تلك الكمية كانت تكفي حاجة البلاد، حتى أن الأوجاق الذي كان يستهلك أرز مصر لم يعد يستورده ، يشير بارادي من جهة أخرى إلى أن أرز طيانة كان أجود من أرز مينا ما تقدم يوضح لنا تلك المحاولات التي قام بها الأتراك وخاصة البايات منهم بهدف تحسين الفلاحة الجزائرية لكن هذه المحاولات جاءت متأخرة و لم يكن الهدف منها أكثر من ضمان موارد الخزينة الدولة².

ب-الصناعة

كانت الصناعة يدوية بعيدة عما وصلت إليه الصناعة الأوروبية حتى قبل الثورة الصناعية، فتعمقت الهوة بين الجزائر و أوروبا أكثر مع ظهور تلك الثورة كانت الصناعة موزعة بين الريف و المدينة، فالصناعة في الريف كانت تلبي حاجيات سكانه أساسا، أما صناعة المدينة فكانت تلبي الحاجات الأساسية لسكان المدن وكماليات الفئات المحظوظة، التي لم تكن تكتفي بالمنتجات المحلية بل تستورد المنتجات الخارجية الأوروبية منها بصفة خاصة³، لم تصل الجزائر في هذا العهد إلى تكوين مراكز صناعية في المدن، قادرة على قيادة النشاط الاقتصادي، وإذا كان هناك تخصص بين الجهات فإن الظروف الطبيعية هي التي فرضته، كانت القبائل الرعوية تصنع المنسوجات الصوفية و الخيام و الحياك و الزرابي و كان سكان المناطق الجبلية يصنعون الأدوات الفلاحية والأسلحة، لأنفسهم وللفلاح السهول والبدو، حتى لسكان المدينة، كانت قبائل بني بني

¹ -صالح عباد، المرجع السابق، ص337.

² - نفسه، ص337.

³ - حنفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة الجزائر، 2008م، ص157.

من أكثر القبائل اهتماما بالصناعة، كانت تشغل بالمعادن فتصنع العربات والأدوات والخناجر وبعض البنادق وكذا المجوهرات، خاصة الفضية منها استغلت مناجم الفضة الواقعة في جبل بالقرب من مصبح، كما اشتغلت بتزوير العملات المختلفة ومنها الأجنبية لعل آيث عباس أبرع القبائل في الصناعات المحلية، فهي تملك أكثر من مائتي رحي للزيتون، وكثرة الرحي تعد مقياس ثروة قبيلة من القبائل تقريبا، بالإضافة إلى ذلك فإن آيث عباس هم الذين يخططون البرانس ويرقعوها بمهارة فائقة، ولهم دكاكينهم في الجزائر العاصمة نفسها "، كما يقول مالتسان، في أواسط القرن التاسع عشر، في منطقة معسكر " تصنع البرانس الشهيرة السوداء ذات اللون الطبيعي والأقمشة الكتيمة التي تستعمل في كامل أنحاء إيالة الجزائر، وتصدر إلى مصر وتركيا، يباع البرنس الواحد من البرانس المهفهفة بسعر يبلغ المائة فرنك "، كما يذكر حمدان خوجة أنه كانت تصنع بالقرب من معسكر أحسن الزراي¹.

كانت المدن تحتوي على الصناعات الغذائية من الطواحين والمخابز و معاصر الزيتون وصناعة السفن، التي اشتركت فيها الدولة إلى جانب الخواص، وصناعة النسيج والمجوهرات، فكانت قسنطينة تصنع أجود الحياك، و كانت مدينة الجزائر تصنع نسيج القماش من الكتان الرديء الأمر الذي يجعله خشنا لا يُستهلك إلا في مدن و أرياف الجزائر، فلا يصدر إلى الخارج، و كانت توجد في مدينة الجزائر ورشات مختلفة لصناعة الشاشيات، التي كانت أقل جودة من شاشيات تونس التي تعتمد على أصواف إسبانيا، فالشاشية الجزائرية لا يتعدى سعرها نصف سعر الشاشية التونسية، مع هذا تعرف طريقها إلى أسواق المشرق، كما هو الحال بالنسبة لمثيلتها التونسية. وصناعة الشاشيات هذه كانت موجودة في البليدة ، كما كان يصنع في مدينة الجزائر عرق التين المعروف في تونس باسم البوخة و في الجزائر باسم المحي. فقد كان البايليك يبيع ما يتبقى له من التين-الذي يحصل عليه كضريبة عينية- لليهود الذين يعالجونه. و كان هذا التين المجفف يرسل من طرف قائد سباو، بصفة خاصة، ويستعمل في تموين القراصنة².

¹ - صالح عباد، المرجع السابق، ص338.

² - حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص158.

ج- التجارة

- التجارة الداخلية

كانت الاختلافات بين المناطق من حيث الإنتاج الزراعي و الإنتاج الصناعي سببا أساسيا في قيام التجارة الداخلية كانت المبادلات بين الريف و المدينة، بين المناطق الجبلية و السهلية، بين التل والجنوب تتم أساسا في الأسواق الأسبوعية والسنوية و هذه الأسواق تقع في أغلبيتها في المناطق الريفية، كانت الإدارة تقيمها وتنظمها و تراقبها كي تحصل على الرسوم وقد لعبت القبائل الرحالة دورا كبيرا في تنشيط الأسواق السنوية من هذه القبائل نذكر أولاد سيدي الشيخ والأرباع وأولاد نايل والنمامشة وغيرها، يتم في هذه الأسواق السنوية تبادل منتوجات الصحراء و إفريقيا المتمثلة أساسا في التمور والماشية و الأصواف و ريش النعام بمنتوجات التل المتمثلة أساسا في الحبوب و الزيوت و التين¹.

كما تعقد أسواق سنوية يتم فيها تبادل منتوجات المناطق الجبلية بمنتوجات المناطق السهلية كما هو الحال في بوسعادة، الكثير من سكان بني عباس و مجانة يبيعون زيتهم في بوسعادة مقايضة بالصوف، ففي شهر ماي ينزل إلى هذه المدينة جليلو القبائل من جرجرة حملين معهم منتوجات صناعتهم المتمثلة في الأطباق الكبيرة و المحارث و الملاعق التي تصنع من الخشب و سيوف فليسة ومجوهرات بني يني و التين والزيتون و الزيوت فيستبدلوها مقابل جزات الصوف يتقدمون أحيانا جنوبا حتى عين الريش على طريق الأغواط لنفس الغرض من جهتهم يتردد تجار بوسعادة على تقرت و سوف أين تأتي القبائل العربية لتبيع أغنامها وأصوافها هذا و البوسعادة سوق يومي يلتئم في رحبة النواسس، من بين ما يباع فيه الملح الذي يشتريه عادة أولاد سلامة، لبيعوه في أسواق سور الغزلان و بلاد القبائل، يقدم لنا الرحالة الألماني مالتسان صورة أخرى عن الحركة التجارية في برج بوعريج فيقول: "و كانت لبرج بوعريج باعتبارها خط مواصلات و سوقا تبيع فيه القبائل المجاورة مصنوعاتا أهمية أكبر مما قد يتصوره المرء بناء على قلة سكانها، فإليها كانت قبيلة مليكش تسوق أبقارها السمينة الحلوب و آيث عباس تبيع فيها منتوجاتها من الزيت و الصناعات البدوية الأخرى، وقبيلة أولاد أبي بكر تزود سوقها بالعسل الذكي الذي تنتجه في منطقتها الجبلية، وتبيع فيها قبائل مجانة صوف أغنامها الكثيرة و كان الوناغوة يحملون إليها صناعتهم اليدوية الجميلة"².

¹ - صالح عباد، المرجع السابق، ص339.

² - نفسه، ص340.

الفصل الثاني تردّي أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني وجهود ابن العنابي الإصلاحية

هكذا فإن مدن السهول العليا قد كانت تشكل الأسواق السنوية الهامة التي يلتقى فيها سكان الجبال والسهول والصحراء، إضافة إلى هذه الأسواق السنوية كانت تنتشر هنا وهناك الأسواق الأسبوعية سوق السبت سوق الجمعة، سوق الاثنين¹.

-التجارة الخارجية

لعبت التجارة الخارجية لأيلة الجزائر دورا رئيسيا في حوض البحر الأبيض المتوسط، فكانت قوة لا يستهان بها بفضل أسطولها البحري، واستطاعت أن تسيطر على طرق الرئيسية لنقل الثروات والسلع، فكان البدل للدول الأوروبية من التودد منها لشراء أمنها وربط علاقات تجارية معها، وبذلك ظهر التنافس الأوروبي للتقرب من الجزائر من خلال عقد معاهدات السلام وصدّاقة، والالتزام بدفع الجزية، ومن جهة أخرى فإن موقع الجزائر الإستراتيجي، وتنوع مناخها، وتباين تضاريسها وخصوبة تربتها، ووفرة مياهها، أثر على تنوع الإنتاج ووفرته².

كما عرفت البنية الاقتصادية للجزائر في أواخر العهد العثماني على العموم حركة نشيطة وتنوعا في الانتاج، و انعكس ذلك إيجابيا على عملية التصدير والاستيراد، فكانت الموارد والمنتجات الجزائرية مطلوبة، خاصة في الأسواق الأوروبية، عبر الموانئ والسفن التجارية، وبذلك ارتفع حجم العائدات، إضافة الى الضرائب التي تدفعها الدول الأوروبية في شكل منتجات وتجهيزات وهدايا، إلا أن التجارة الخارجية لأيلة الجزائر في مطلع القرن 11م، عرفت تراجعا بسبب توسع الامتيازات الاقتصادية، واحتكار الشركات الاجنبية للتجارة الخارجية من جهة، وتوتر العلاقات مع دول أوروبا بسبب الجزية والقرصنة كما يصفونها من جهة أخرى³.

3-الأوضاع الاجتماعية

يذكر حمدان خوجة⁴ في كتابه المرأة الصادر سنة 1833م، أن عدد سكان إيلة الجزائر كان عشرة ملايين نسمة، لكن الإحصائيات الفرنسية تنفي هذا الرقم نفيا قاطعا فحسب إحصاء 1856م، بلغ عدد سكان

¹ - حنفي هلايلي، المرجع السابق، ص158.

² - عز الدين بلعدي، التجارة الخارجية للجزائر أواخر العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية والأثرية، ع01، مج03، المركز الجامعي مرسلّي الله تيبازة، 2023م، ص2.

³ - نفسه، ص2.

⁴ - حنفي هلايلي، المرجع السابق، ص163.

الجزائر 23 مليون نسمة فقط لا بد أن نلاحظ هنا أن السلطة الاستعمارية لم تكن قد امتدت في هذه السنة إلى كل جهات إقليم إيالة الجزائر في العهد التركي، وبالتالي فإن هذا الرقم يكون أقل من الرقم الحقيقي، خاصة إذا علمنا أن عمليات الغزو كانت سببا في مقتل عدد كبير من السكان خلال ربع قرن من العمليات العسكرية، لهذا يذهب بعض المؤرخين إلى القول أن عدد السكان في الجزائر كان حوالي ثلاثة ملايين نسمة، ويبدو هذا الرقم معقولا باعتباره رقما تقريبا كان هؤلاء السكان موزعين على المدن والقرى والأرياف، لكن أغليبيتهم الساحقة كانت تعيش في الأرياف، يؤكد المؤرخون أن حوالي 90 % منهم كانوا ريفيين، معنى هذا أن سكان المدن كانوا أقل من 300 ألف نسمة انطلاقا من الرقم التقريبي الذي هو ثلاثة ملايين نسمة¹.

أهم المدن الجزائرية في أواخر العهد التركي هي الجزائر، قسنطينة، وهران تلمسان، عنابة معسكر مازونة المدية، البليدة بسكرة، مليانة مستغانم بجاية المسيلة تبسة، عين ماضي، تقرت ورقلة، تقطن هذه المدن طوائف تختلف من مدينة إلى أخرى، لكن بعض الطوائف نجدها في أغلب المدن، فطائفة الحضر نجدها في كل المدن وكذلك البراني، كما يسمون في مدينة الجزائر، و نجد الأتراك في المدن الكبرى خاصة في مدينة الجزائر، كما نجد الكراغلة في أغلب المدن وحتى خارجها، ونجد اليهود موزعين في أغلب المدن في الجزائر، تلمسان، وهران، معسكر، مستغانم قسنطينة و في واحات وادي ميزاب وفي قرى بلاد القبائل في المدية وفي بجاية. ونحن إذ لا نستطيع أن نتطرق لسكان كل المدن فإننا نقتصر على سكان مدينة الجزائر التي أمكن لها أن تستقطب كل الطوائف لكونها عاصمة البلاد².

مثلما كانت مدينة الجزائر تجذب السكان من مختلف جهات البلاد و من مختلف جهات حوض البحر الأبيض المتوسط في القرنين السادس عشر و السابع عشر على الخصوص، أصبحت تطرد السكان في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، نتيجة عوامل عدة، منها تراجع نشاطات القرصنة، وتعرض المدينة للعديد من الحملات الأوربية وكثرة الاضطرابات والفتن التي كانت تحدثها الانكشارية، كما كان لوباء الطاعون دور هام في تفهقر عدد سكانها³.

¹ - حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تق و تع و تح محمد العربي الزبيري، سلسلة التراث منشورات Anep، 2005م، ص9.

² - صالح عباد، المرجع السابق، ص10.

³ - نفسه، ص356.

هذا من حيث العدد، أما من حيث التركيبة الاجتماعية، فإن مدينة الجزائر قد ضمت العديد من الطوائف، الأمر الذي أدى إلى تعدد لغوي عجيب فيها، كانت اللغة التركية مستعملة من طرف الأتراك و الأعلاج، كما كانت مستعملة من طرف بعض الأهالي و العبيد نتيجة الاحتكاك بالأتراك و كانت العربية لغة الأهالي مستعملة أيضا من الأتراك و العبيد المسيحيين بدرجة أو بأخرى كما كانت الأمازيغية مستعملة بين السكان الذين جاءوا من بلاد القبائل ووادي ميزاب وكانت هناك لغة رابعة متداولة هي التي تعرف باسم الفرنك، و هي خليط من كلمات إسبانية وإيطالية في أغلبها، وقد دخلتها بعض الكلمات البرتغالية، بعد أن أوتي بعدد كبير من الناس إلى الجزائر من تطوان و فاس بعد المعركة التي قتل فيها ملك البرتغال سيباستيان، سنة 1578م هذه اللغة الخليط تكلمها الجميع، الأتراك و الأهالي و حتى النساء والأطفال، وقد تدعمت بما أتى به المسلمون من الأسرى، من إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، بالإضافة إلى أعلاج هذه البلدان واليهود الطوائف التي كانت موجودة بمدينة الجزائر هي¹:

- طائفة الأتراك: لما تعرض هايدو في أواخر القرن السادس عشر، لسكان مدينة الجزائر من الأتراك قسمهم إلى صنفين: صنف الأتراك الأصليين الذي يأتون إلى الجزائر يوميا من الإمبراطورية العثمانية، بحثا عن الثروة، خاصة في ميدان القرصنة، إنهم يأتون من الأناضول أو تركيا الآسيوية و من رومانيا أو تركيا الأوروبية، أتراك أوربا لا ينتمون إلى الإنكشارية بل يعيشون من عملهم وصناعتهم وكانوا يشكلون حوالي 1600 بيت الصنف الثاني هو أتراك العقيدة و هم المسيحيون المرتدون عن دينهم، الذي اعتنقوا الإسلام، و هم الذين يعرفون باسم الأعلاج هؤلاء الأعلاج أكثر عددا من الأتراك الأصليين، من أسباب تخليهم عن دينهم واعتناقهم الإسلام الإرادة في التخلص من العبودية فهم من الأسرى الذين استولى عليهم رياس البحر. كان الأتراك يشجعونهم على الانضمام إلى طائفتهم بعد أن يتحرر هؤلاء العبيد ويعتقون الإسلام تنشأ علاقة وثيقة بينهم وبين أسيادهم تُشبه العلاقة بين الأبناء والآباء، بحيث إذا مات علج دون أن يترك وريثا تعود أملاكه إلى سيده الذي حرره أو إلى أبنائه أو أحفاده، وإذا مات السيد المحرر، دون أن يترك وريثا، فإن أعلاجه هم الذين يرثونه، إضافة إلى هؤلاء الأعلاج المحررين هناك نوع آخر منهم و هم الذين يأتون إلى الجزائر بمحض إرادتهم² و يعتنقون الإسلام فيصبحون أتراكا وأكثر عداء للمسيحية من المسلمين دائما حسب هايدو بلغ عدد بيوت هؤلاء ستمائة في مدينة الجزائر و هم يلعبون دورا كبيرا في السلطة وقد عدد

¹ - صالح عباد، المرجع السابق، ص356.

² - نفسه، ص356.

الأب دان الأعلاج في مدينة الجزائر سنة 1649م بحوالي ثمانية آلاف من الذكور و بين ألف وألف ومائتين من الإناث بينهم 3 أو 4 فرنسيات لا شك في أن حياة العزوبة المنتشرة بين الأتراك هي التي كانت تدفعهم إلى تبني هؤلاء الأعلاج بعد تحريرهم. يضاف إلى الصنفين المذكورين من الأتراك جنود الإنكشارية الذين كانوا يجندون في أراضي الدولة العثمانية، إن عمليات التجنيد و قبول الأعلاج ضمن هذه الطائفة تفسر أساسا بالسعي للحيلولة دون انقراض طائفة الأتراك ما دام أعضاؤها لا يعترفون بتركية أبنائهم من بنات الأهالي و يعتبرونهم أدنى منهم¹.

كان الأتراك يشكلون طائفة مغلقة منعزلة عن المجتمع الجزائري متمسكة بلغتها التركية و بمذهبها الحنفي. تخضع لنظام قضائي خاص و لها امتيازات خاصة حيث يرتدي الأتراك وحدهم الثياب المطرزة بالذهب و يحملون السلاح فلا يحق للمزور أن يحجزهم الخ. ولا تتمتع ببعض هذه الامتيازات إلا القلة القليلة من الأهالي الذين ساندوا عروج و خير الدين مثل سكان جيجل القاطنين في مدينة الجزائر².

غير أن امتيازات هؤلاء الأهالي لا تتجاوز الامتيازات المظهرية، فليس لهم الحق في السلطة و القيادات الإدارية، فالسلطة تبقى بيد الأتراك و لا تخرج منها أبدا إلا ما تعلق منها ببعض المسؤوليات التي يُسمح بها لبعض الكراغلة مثل مسؤولية الباي، لكن على الرغم من أن الأتراك هم القادة والإداريون والإنكشارية و ضباطها، فإننا نجد منهم التجار وأصحاب الورشات الحرفية و العمال في مختلف المهن و هم لا يحتقرون أية مهنة، إذ لا شيء حقير بالنسبة لهم. يعطون في الحياكة، في التجارة، في صناعة الأسلحة، يبيعون الدجاج و العجول و الأعلاف والفواكه والتبغ والغلايين كما يبيعون المحاصيل الزراعية بأنفسهم إن كانت لهم أرض لقد اتضح انعزال الأتراك عن المجتمع الجزائري حين سقطت مدينة الجزائر بيد الفرنسيين. ففي الوقت الذي تصالح فيه هؤلاء و أبنائهم الكراغلة مع الفرنسيين قام الجزائريون يدافعون عن أنفسهم و بلادهم دون قادتهم القدامى، باستثناء بعضهم، الشيء الذي أدى إلى بروز قيادات جديدة جزائرية³.

- طائفة الكراغلة: الكراغلة هم أبناء الأتراك من أمهات جزائريات، فهم أقرب إلى الأهالي من قرب الأتراك إليهم، يشكل هؤلاء الكراغلة طائفة فوق الطوائف الأخرى ولكن تحت طائفة الأتراك، وجود هذه الطائفة

¹ - حمدان بن عثمان خوجة ، المصدر السابق، ص11.

² - حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص163.

³ - نفسه، ص163.

يعبر بوضوح عن إرادة الأتراك في الحفاظ على (نقاوة) طائفتهم و عن إرادتهم في تجنب الاختلاط بأهالي¹ البلاد خاصة من الناحية العددية كانت طائفة الكراغلة أكثر عددا من طائفة الأتراك سواء في مدينة الجزائر أو في البلاد الجزائرية كلها، كما أنها أكثر انتشارا، عناصرها موجودة في كل المدن التي كان بها أتراك وخاصة إنكشارية الحاميات يتواجدون في قسنطينة، عنابة، جيجل، بسكرة، المسيلة، المدية، طيانية، مازونة، معسكر، وهران، تلمسان و غيرها كان الكراغلة يشكلون طائفة متميزة في هذه المدن، كانوا يشكلون في تبسة مثلا العنصر المهيمن من حيث العدد و من حيث النفوذ فهم الذين يملكون كل أراضي الملك المحيطة بالمدينة على الرغم من أن الحامية التركية لم يتم إنشاؤها في تبسة إلا في أواسط القرن الثامن عشر، وكانوا يقطنون أجمل و أحسن حي في هذه المدينة لقد تمرد هؤلاء الكراغلة على السلطة التركية مرات عديدة في مدينة الجزائر وفي مدن أخرى كما حصل في تلمسان مرات عديدة لما سيطر الفرنسيون على وهران أعلن كراغلة تلمسان ولاءهم للغزاة ضد الأمير عبد القادر².

لا يقتصر وجود الكراغلة على المدن كما هو الحال بالنسبة للأتراك، بل كانوا متواجدين في الأرياف كذلك يعود أصل كراغلة الأرياف إلى أولئك الذين طردوا من مدينة الجزائر أثناء تمردهم على السلطة التركية في سنة 1629م، لقد تشكل مخزن الزواتنة، في قدم جبل فليسة من هؤلاء قدر حمدان خوجة عددهم وقتئذ بين ثمانية وعشرة آلاف لقد وقف هؤلاء إلى جانب الفرنسيين وحاربوا الأمير عبد القادر، كما فعل إخوانهم في تلمسان، رغم خروج الكراغلة من مدينة الجزائر في أعداد كبيرة إلا أننا نجد عددهم فيها أكبر من عدد الأتراك في أوائل القرن التاسع عشر³.

- **طائفة الحضر:** الحضر هم الذين يقطنون المدن بصفة دائمة ، و يكتسبون أسلوب حياتها. هم في مدينة الجزائر صنفان؛ صنف " البلديين " وصنف الأندلسيين، " البلديون " هم أهالي ولدوا بالمدينة واستقرت عائلاتهم بها منذ القديم كانوا يشغلون في مدينة الجزائر حوالى 2500 بيت في أواخر القرن السادس عشر أغلبهم يزاولون التجارة و يملكون حوانيت و موضوع تجارتهم الرئيسي هو المواد الغذائية ، كما يشتغل بعضهم بالصناعة، و يملك البعض الآخر البساتين التي يعيشون من منتوجاتها و هم أحسن وضعية من غيرهم من الأهالي تتمثل منتوجاتهم في القمح والشعير و الخضر و الحرير و الأبقار والأغنام. هؤلاء البلديون

¹ - حنفي هلايلي، المرجع السابق، ص163

² - صالح عباد، المرجع السابق، ص357.

³ - نفسه، ص358.

معفون من الرسوم بموجب امتياز منحهم إياه عروج منذ أن دخل مدينتهم كانت لهم أملاك في سهل المتيجة، الأندلسيون هم أولئك الذين جاءوا من ممالك أرغونة بلنسية، قطلونيا وغرناطة، يذكر هايدو أنهم كانوا يأتون خلال القرن السادس عشر عن طريق مرسيليا وموانئ فرنسية أخرى و أن الفرنسيين كانوا ينقلوهم إلى مدينة الجزائر بصدر رحب يقسم الأندلسيون إلى صنفين الدجنون و هم الذين خرجوا من غرناطة و الأندلس و التغربون وهم الذين جاءوا من ممالك أرغونة و بلنسية وقطلونيا، يزاول الأندلسيون في مدينة الجزائر، حرفا عديدة، بعضهم يصنع الأسلحة والبعض الآخر يصنع ملح البارود و البارود وغيرهم يصنع الأفقال ومنهم من يشتغل بالنجارة والبناء و الخياطة و صناعة الأحذية والخزف و التجار منهم يبيعون الأقمشة و غيرها، يملك الأندلسيون حوالى ألف بيت في المدينة نشير هنا إلى أن الهجرات الأندلسية قد تواصلت بعد القرن السادس عشر¹ و أن استقرار المهاجرين لم يقتصر على مدينة الجزائر بل شمل كل دار السلطان في شرشال البليدة والقلعة، كما استقر هؤلاء في المدن الساحلية مثل بجاية ومدن الداخل مثل تلمسان. كنا رأينا أن الأندلسيين أدخلوا مزروعات جديدة و صناعات جديدة إلى الجزائر وبفضلهم ازدهرت مدن شرشال والقلعة و البليدة، وانتشرت الموسيقى الأندلسية².

- **طائفة البراني:** تتشكل طائفة البراني من أناس غادروا الأرياف بحثا عن العمل في مدينة الجزائر و هم معروفون في هذه الأخيرة باسم القبيلة أو الجهة التي جاءوا منها، فمنهم البسكريون ومنهم القبائليون والمزابيون و الأغواطيون وغيرهم. كان البسكريون يعملون في الحمامات العمومية، و الأغواطيون يشتغلون بنقل الأوساخ و بنو ميزاب يحتكرون قسما هاما من النشاطات التجارية، وهم أغنى مجموعات البراني، أما القبائليون فكانوا يسيطرون على أشغال البناء، وقد اكتسبوا مهارة هذه المهنة في مناطقهم الجبلية التي كان سكانها يعتمدون على بيوت الحجارة بنسبة عالية³.

- **الدخلاء:** الدخلاء هم الأجانب عن البلاد و ليس عن المدينة فقط أو هم الأجانب عن الإسلام، هذه هي التسمية الأصح، نجد في خانة الدخلاء العبيد السود و العبيد المسيحيين والمسيحيين الأحرار واليهود، العبيد السود هم الذين كان ينقلهم التجار من إفريقيا، و كانوا موضوع تجارة مربحة، خاصة بعد تحول طرق الذهب الإفريقي نحو المشرق، كان الأتراك و الكراغلة وحضر مدينة الجزائر يقبلون على اقتناء هؤلاء العبيد

¹ - حمدان بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص12.

² - نفسه، ص12.

³ - صالح عباد، المرجع السابق، ص359.

كانت تقرت و ورقلة تقدمانهم ضريبة للأتراك، لقد أنشأ الأتراك من عناصر منهم، بعد تحريرهم جماعات عسكرية باسم المخزن أو الزمالة، سواء في بايليك التيطري أو في بلاد القبائل أو في بايليك الشرق والغرب، إننا لا نملك أرقاما عن عددهم في مدينة الجزائر أو في غيرها.¹

4-الأوضاع الثقافية

عرف أيالة الجزائرية في العهد العثماني ومنذ القرن السابع عشر ميلادي إلى الربع الأول من القرن التاسع عشر ميلادي ركودا ثقافيا مقارنة مع ما شهدته النهضة العلمية والصناعية في أوروبا، ورغم ذلك فلقد كانت بالأيالة حركات تجديدية فكرية، منبعثة من علماء جزائريين تركوا بصماتهم الأدبية والتعليمية في حفظ التراث الجزائري الإسلامي وفي استمرار عمران المساجد والزوايا والكتاتيب والمكتبات التي زخرت بأدب الرحالات، والشعر الشعبي الذي عبر عن خلجات الشعب في السراء والضراء، بالإضافة إلى المؤسسات الدينية والتعليمية التي حافظت على أسسها مؤسسات الأوقاف وكذلك إسهامات العائلات الأرستقراطية والأشراف وأعيان المدن وشيوخ الزوايا القرآنية.²

كان التعليم في العهد العثماني بإيالة الجزائر يقدم في مراكز مختلفة، وكل واحد منها يقوم بوظيفته أحسن قيام حسبما تسمح به ظروف العصر، وهذه المراكز هي:

أ-المراكز الثقافية:

- **كتاتيب القرآن:** الكتاب أو المسيد هو تصغير لكلمة مسجد، غالبا ما تكون في أضرحة الأولياء وفي الدكاكين، والتي كانت الأخرى مكانا للمسامرة الأدبية ليلا، وفي المساجد تقام الصلوات الخمس وقد خصصت لحفظ القرآن، وتعليم القراءة والكتابة وبعض مبادئ الحساب، وهي أول محل يتلقى فيه الطفل الحروف الهجائية بواسطة اللوح المصلصل والقلم الخشبي، وتكون هذه الكتاتيب غالبا في المساجد على مستوى القرى، وكانت بمثابة مرحلة التعليم الأولى أو المدرسة الابتدائية في عصرنا الحاضر، يسمى في الريف

¹ - صالح عباد، المرجع السابق، ص359.

² - رشيد مريخي، "ملاحم من الحياة الثقافية في الجزائر أواخر العهد العثماني"، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، ع12، مج5، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ديسمبر 2017م، ص2.

"الشريعة" لأنه تدرس به الشريعة أما في المدينة فيسمى "المسيد" الأستاذ بوعزيز فإنها أنشئت لتجنب المساجد ضوضاء الأطفال والحفاظ على نقاوتها، وكانت هذه المؤسسات الدينية منتشرة في كامل البلاد¹

- الزوايا: احتلت الصدارة بين مراكز الثقافة والتعليم خاصة بالأرياف. لقد مثلت الزاوية المسجد والمدرسة في آن واحد، ولأنها مؤسسة تعليمية تابعة للعبادة والتعليم فهي لا تختلف عن المساجد سوى لأن أغلبها كان بالريف وتقوم الزوايا بتعليم مادة أساسية وهي القرآن الكريم، إضافة إلى الفقه والعقائد وقواعد النحو والصرف، وقانون البلاغة والحديث، مما أعطى الثقافة الجزائرية في هذه الفترة صبغة دينية، لقد أحصى "دوفو" في أواخر العهد العثماني اثنا عشر زاوية واثنتان وثلاثون ضريحاً، يضاف إليها زاوية سيدي عبد الرحمن الثعالبي وزاوية سيدي عبد القادر الجيلاني وزوايا بلاد الزاوية نوعان وهي زوايا حرة لا تنتمي إلى أي ولي أو طريقة كزاوية عبد الرحمن اللولي، وزاوية تنسب إلى ولي فيكون بها ضريح في الغالب أو تنسب إلى طريقة من الطرق الصوفية كالرحمانية في جبال جرجرة².

أما مدينة قسنطينة فقد وجد بها ستة عشر زاوية منها ما كان تابعا للعائلات الكبيرة مثل زاوية أولاد فكون وزاوية ابن نعمون وزاوية ابن جلّول، والزاوية "العزوزية" بضواحي بسكرة.

واشتهرت معسكر بكثرة العلماء، وبرزت عدة زوايا ومدارس ومعاهد علمية ودينية كزاوية سحنون بن أحمد الحسني ، وزاوية القيطنة التي وصل عدد طلابها إلى أكثر من 500 طالب، كما اشتهرت تلمسان بزواياها التي بلغت أكثر من ثلاثين زاوية أشهرها زاوية عين الحوت والزاوية الموجودة في جبل بن راشد والتي كان لها دور رائد في العلم في الريف وفضلاً عما كانت تقوم به الزاوية من وظائف متعددة تحدثنا عن بعضها فإنها كانت كذلك مخازن للكتب، ومن أشهرها المكتبة التي بناها الباي مصطفى للحافظ أبو راس³.

- المساجد: كانت المهة الأولى للتعليم، وأماكن لأداء الصلاة ولتحفيظ القرآن الكريم ومعالجة مشاكل الناس وتدريس العلوم الشرعية والإنسانية، ويلاحظ أن أغلب المدن الجزائرية كانت تشمل مسجدا يطلق عليه اسم "الجامع الكبير" وهو الاسم الذي اشتهر به بين الناس إما لقدمه أو لسعته ، أما المساجد فكانت العناية بها واضحة في المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، فلم تكن تجد حياً في المدينة إلا وله مسجد خاص به، وكان المسجد ملتقى للعبادة، ومكان اجتماع أعيان المدينة ومحور نشاط الحياة العلمية

¹ - رشيد مريخي، المرجع السابق، ص2.

² - نفسه، ص3.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500م - 1830م، ج1، ط1، دار الغرب الاسلامي، 1998م، ص276.

والاجتماعية، وكان يمثل روح الحي في المدينة، وحوله كانت تنتشر السكنات والأسواق والكتاتيب ومن أشهر دور العبادة بمدينة الجزائر؛ مسجد كتشاوة، والجامع الأعظم، ومسجد الشواش، ومسجد السيدة الذي كان يقع مقابل دار الإمارة، وقد كان يخرج إليه الداي ورجال دولته لتأدية فريضة الصلاة، واشتهرت بجاية بالجامع الكبير الذي أمر ببنائه مصطفى باشا سنة 1798م¹.

أما عنابة فحسب المؤرخ التونسي عثمان الكعاك فكان يوجد بها في آخر القرن الثامن عشر 37 جامعا أشهرها، جامع سيدي مروان الذي هو جامع رباط عنابة، وجامع الباي وهو الجامع الحنفي، وجامع الرمانات؛ إذ جرت العادة زرع رمانات بصحون الجوامع للظل والزيادة في الجمال أما قسنطينة التي زارها الحسين الورتلاني في القرن الثامن عشر، فقد ذكر أنه وجد بها خمسة جوامع خطبة ومن أشهر مساجد بسكرة التي كانت تلقى فيها الدروس؛ مسجد سيدي عبد المومن بن مالك بباب الضرب، والمسجد الأعظم المعروف بمحصن الترك ولإنعاش الحركة العلمية عين الباي مصطفى الحافظ أبو راس الناصر مسجدا بمعسكر بعد سنة 1802م، مزودا بمكتبة بها أكثر من ثلاثة آلاف مجلد وغرفة للمطالعة كما أعاد الداي مصطفى باشا بناء جامع سيدي علي مبارك ومنارته، وكذا الزاوية الموجودة في القليعة².

-المدارس: وهي أماكن مخصصة لإلقاء الدروس بها، وقد عرف أبو راس الناصر المدرسة بقوله: "المدرسة المتعارف عندنا الآن وهي التي تبين لدراسة العلم أي تعليمه وتعلمه" والمواد التي كانت تدرس في المرحلة الأولى للصغار القراءة والكتابة والقرآن ولما ينتقلون إلى المعاهد الكبرى يدرسون المواد التالية: الفقه، التفسير ويضم أيضا العقائد والأخلاق لتفسير القرآن والأحاديث، وعلم الحساب³.

وكانت تلقى الدروس في المساجد الرسمية مثل المسجد الكبير بتلمسان، وفي الجزائر نجد هذا النوع من التعليم في زاوية القليعة وزاوية مليانة، وفي قسنطينة في مسجد سيدي لخضر وكان يوجد بالجزائر العاصمة عدد كبير نسبيا من المدارس، يبعث إليها الجزائريون أولادهم ليتعلموا القراءة و الكتابة، ومنطقة زاوية اقتصر وجودها على مدينة بجاية فقط، وقد اشتهرت هذه المدينة بدورها العلمي والتعليمي، وقد تراوح عدد المعاهد التعليمية فيها بين مدارس وزوايا ومعمرات بين 35 و 40 وفي الغرب الجزائري اشتهرت مدرسة أبي طالب المازوني في كل أنحاء الوطن، ولا زالت تلك المدرسة تحتفظ بجزء من صحيح مسلم أهدها الباي عثمان للعالم الجليل

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500م - 1830م، ج1، ص276.

² - رشيد مريخي، المرجع السابق، ص3.

³ - نفسه، ص4.

- **المعمرات:** وهي شبيهة بالزوايا معدة لتعليم القرآن وحفظه ودراسة العلوم المختلفة، وكانت لهذه المعمرات أحباس هامة وقوانين داخلية، وهي تمتاز عن الزوايا بكون هذه الأخيرة تخضع في الغالب لتصرف شيخ الطريقة أو مقدميه، أما هذه المعاهد "المعمرات" فإنها تخضع لنظامها وقانونها الداخل كان لها دور هام في تعليم القرآن الكريم وتحفيظه، وتوسع قراءته في مختلف المناطق الريفية وبناء الأجيال المتعاقبة¹.

ب- أشهر أعلام العصر ومؤلفاتهم:

- **أعلام مدينة معسكر:** أنجبت مدينة معسكر وسهل غريس والوطن الراشدي . علماء أجلاء وفقهاء ومحدثين، ومقرئين ومؤرخين، وكتاب سير، وشعراء ورحالة، وبرزت عائلات بحالها توارثت العلم، والوظائف العلمية كعائلة الخروبي وعائلة أبي راس الناصر².

- **أعلام مدينة وهران والغرب الجزائري:** أنجبت وهران العديد من العلماء في شتى العلوم نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، مسلم بن عبد القادر الوهراني (ت1248هـ/1832م)، ويعتبر من ذوي المعرفة بالعلوم الفقهية والفنون الأدبية. ينسب إلى الشيخ مسلم بن عبد القادر عدة تصانيف منها: "نظم الجواهر في سلك أهل البصائر"، وقد عرف بتأليف طريف في التاريخ بعنوان "خاتمة أنيس الغريب والمسافر في الطرائف والنوادر"، وقد ركز فيه على أخبار وهران وناحيتها في الخمسين سنة الأخيرة التي سبقت الاحتلال الفرنسي 1192-1248هـ / 1778-1832م ومن أشهر أعلام تلمسان أبو العباس أحمد بن محمد بن هطال التلمساني، تولى الكتابة لدى الباي محمد الكبير باي الغرب وأصبح من مقريه ومستشاريه، وله من المؤلفات "رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري"³.

- **أعلام مدينة الجزائر:** هذا وقد انتشرت الحركة الثقافية منتأليف في شتى العلوم، وازدهرت حلقات العلم بمدينة الجزائر، ومن العلماء الذين اشتهرت بهم: علي بن عبد القادر بن الأمين (ت 1236هـ/1821م)، كان من أعيان العلماء في عصره، درس بمسجد حسين ميز و مور طو بالجزائر العاصمة، ومن تلاميذه بمدينة الجزائر مصطفى بن الكبابطي، ومن مؤلفاته: "إتحاف ذوي الألباب بفضل الخطاب، إضافة إلى حمدان بن عثمان خوجة (ت1261هـ / 1845م) الذي ولد بمدينة الجزائر، من أسرة حضرية عريقة ذات

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500م - 1830م، المرجع السابق، ص277.

² - نفسه، ص277.

³ - رشيد مريخي، المرجع السابق، ص4.

الفصل الثاني تردّي أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني وجهود ابن العنابي الإصلاحية

ثروة وجاه، وكان أبوه فقيها مقربا من السلطة الحاكمة بالجزائر، كان حمدان خوجة على دراية بمسائل الأصول وعلم الكلام والمنطق والتاريخ والطب، وأكسبته أسفاره العديدة معرفة أولية باللغتين الإنجليزية والفرنسية¹.

- أعلام مدينة قسنطينة والشرق الجزائري: من أشهر العلماء الذين أنجبته قسنطينة في هذا العصر عبد الرحمن باش تارزي (ت 1222هـ / 1807م)، وكان ممن جمع بين العلم والتصوف ومن مؤلفاته: "غنية المريد في شرح منظومة مسائل التوحيد" وهي 45 مسألة ومُجَد الحفصي القسنطيني (ت 1226هـ / 1811م)، فاضل له مشاركة في علم المنقول والمعقول، حافظ للحديث، له حاشية على السلم في المنطق، وله "تقايد" الشيخ مصطفى العجمي (ت 1240هـ / 1824م) من كبار فقهاء المالكية، له "تكملة شرح الشهورى" وأحمد بن سعيد العباس فقيه (ت 1251هـ / 1836م)، له مشاركة في علوم البلاغة والبيان وسير الرجال والمنطق والكلام من أهل قسنطينة، قال صاحب تعريف الخلف: أخذ عن الشيخ حسين الشريف خطيب جامع الزيتونة وغيره، له تقايد على صحيح مسلم وعدة مؤلفات².

- أعلام الجنوب الجزائري: من أواخر الأعلام لآخر القرن الثاني عشر والثالث عشر في مدينة بسكرة قاعدة الزيبان والواحات؛ الشيخ مُجَد بن خمار، والشيخ الطاهر دالي علي³.

ثانيا: جهود ابن العنابي لإصلاح أوضاع الجزائر

يعد ابن العنابي أحد الأقطاب البارزين في الجزائر، بل وفي بلدان المغرب الإسلامي في العصر الحديث، فقد كان عالما جليلا ومصلحا قديرا ومقاوما عنيذا للفرنسيين حسب ما يذكر معاصروه، إن هذه المكانة التي حظي بها علماء المذهب الحنفي، وعلى رأسهم ابن العنابي لم تحصل صدفة، بل كانت نتيجة علم وعمل واجتهاد وانفتاح، وهذا ما أهّل العلامة ابن العنابي لأن يكون له السبق في طرح قضايا التجديد والإصلاح الاجتماعي والسياسي والعسكري في العالم الإسلامي⁴.

¹ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500م - 1830م، المرجع السابق، ص 278.

² - نفسه، ص 278.

³ - نفسه، ص 279.

⁴ - أجقو علي، المرجع سابق، ص ص 7-8.

1- الإصلاح العسكري

شكل الجيش الأوروبي الحديث المادة الدسمة ومنطلق دعوة النخبة لإصلاح الجيش قصد تجديده وإصلاح نظمته العسكرية إبان القرن التاسع عشر الميلادي، وقد كانت نظرة النخبة المغاربية مختلفة الأبعاد، ولم تكن على نفس الصورة ولا على نفس الفهم، فمنهم من كانت نظرتهم عابرة في السياق التاريخي لمجريات الأوضاع العامة لممالك أوروبا، ومنهم من كانت ثاقبة اكتسبها الطابع الحسي النقدي كالمناداة بالإصلاح بحكم ضرورته، والاقتراب من الأنماط الأوروبية الحديثة¹.

انطلقت إصلاحات ابن العنابي من الجيش بدافع الجهاد الذي دعا إليه الإسلام في كتاب الله وسنة رسوله المصطفى ﷺ، قصد تحرير البشر من الاستعباد والظلم، وإقامة دولة يسودها العدل وهي في مجملها أهداف لا يمكن تحقيقها إلا في ظل دولة قوية بجيشها القوي القادر على توفير الأمن الداخلي، والدفاع عن مصالحها الخارجية، وتحصين ثغورها وصيانة محارمها ودماء أفرادها².

كان الواقع المرير مصدر ومنطلق آرائه التحديثية، وقد بثّ في قرارة نفسه الاهتمام بإصلاح الجيش، مثلما كان تأييدا لسياسة الإصلاحات التي باشرتها الدولة العثمانية في إطار تحديث أجهزتها سيما العسكرية منها فكان بذلك برنامج دعوة موجهة إلى العلماء الرافضين لهذا المنحى الإصلاحي التحديثي الذي انتهجه السلطان محمود الثاني بكونه تأييدا لجهوده، ومنحاه مُبرِّراً عوامل القوة في الخصم وسليباته على قوة وأمن المسلمين والإسلام قائلا: "لما حدث في هذه الأعصار الأخيرة، تطاول طغاة الأمم الكافرة بترتيب أجنادهم عن طريقة مُحْكَمَةٍ استدعوها، وتدريبهم على فنون حيل اخترعوها قصد المكيدة للإسلام، وأهله وسعيا في استباحة حماه وتمزيق شمله" وفي ذلك إقرار بالتفوق للخصم وأخطاره على الإسلام والذي أرجعه إلى القوة العسكرية بما فيها من صناعة حربية، وعلمه بموقف الانكشافية وهي على نظامها العنيف المعارض للإصلاحات العثمانية، لذلك أخذَ بمأخذ المساس بالشرع والخروج عنه، فكان ابن العنابي على بَيِّنَةٍ من أمره في الصراع القائم بين المؤسسة العسكرية والسلطة من قضايا التحديث والتجديد، بينما كان موقفه الشخصي من ذلك وجوب مجارة التفوق الأوروبي، وجعله من باب الواجب الشرعي منطلقا من معارفه الفقهية القائلة بتشجيع الشريعة الإسلامية للحلول العلمية والعملية لمواجهة أُمِّ المشكلات ومواطن الضعف،

¹ - قاسي فريدة، المرجع سابق، ص15.

² - نفسه، ص15.

فلا محلّ للموعظة لِرَبِّ المظالم والاعتداءات، وقد جاء في كتاب الله ما يشجع على الاستعداد وأخذ الحيطة من أعداء الإسلام¹ في قوله: "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْحَبْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ"².

لخص ابن العنابي سبيله لإقناع خصومه من العلماء بالتّحجج بآيات قرآنية، أخذاً بشرحه لسورة الأنفال، فاستهل بتعريف الأمور الحربية والتي صنفها ضمن الأمور الشرعية بقوله: "تعني به كل ما أنتج قوة محسوسة أو معقولة، على نية دفاع الأعداء وإرهابهم، وإغاضة نفوسهم وإتعاّبهم"، فكانت هذه المعاني أموراً شرعيةً لما فيها من إذلال للكفر، وعزة للإسلام، وإعلاء كلمته، وأنه المقصود الأعظم من شرعية الجهاد، فكل ما يفيد منفعة وتعلق بإعزاز للدين ورفع شأنه، مما تدعو إليه الحاجة، فهو أمر مشروع بالنظر إلى أصله لما ذكرناه، ولإدراجه في عموم قوله "وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ"³.

ثم ذهب إلى ذكر النظام ومكوناته من ترتيب للعساكر، وتصنيفهم وحصر أعداءهم، وتحديد قواءمهم، وتمييز أصنافهم وكبرائهم بخصوص لباس أو علامة، وتصنيف ملابسهم وتقصيرها، وتعيين مواقعهم وعملهم، وتخصيص كل فريق براءة أو لواء، ثم تدريبهم على الحرب⁴.

كانت الأمور الحربية موضوع المقصد الأول من كتابه "السعي المحمود في نظم الجنود" الذي تَضَمَّنَ فكرتان، بارزتان شملت احدهما النظام العسكري في تسعة فصول كاملة، فكان أولها تعريفاً للجند وأهميته وفي هذا يقول: المراد "جمعهم لحماية أهل الإسلام وجهاد الكفار، وإرهابهم" مستنداً بآيات من كتاب الله العزيز وسنة رسوله الكريم ﷺ، فيما اعتنى في الثانية بترتيب الجند ومنزلة كل واحد منهم، واصفاً خصاله الحربية ومعارفه مستنداً ذلك بقوله: "يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ"⁵ فضلاً على تأييد تعلّم العلوم من الأجانب فيما فيه منفعة للإسلام وأهله⁶.

¹ - أميرة مداح، نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية، دار الحارثي، الطائف، 1998، ص 62.

² - سورة الأنفال: الآية 60.

³ - سورة الأنفال: الآية 60.

⁴ - قاسي فريدة، مرجع سابق، ص 17.

⁵ - سورة المجادلة: الآية 11.

⁶ - قاسي فريدة، مرجع سابق، ص 18.

أَوَّلَى ابن العنابي أهمية في الفصول الرابع والخامس والسادس من كتابه أهمية للحديث عن ضبط الجنود في أعدادهم، مستشهدا بالأحاديث النبوية ونماذج تاريخية تعود إلى عهد الرسول ﷺ، وعن مراتب الجند ومسؤولياتهم، وأورد ألقابا لوظائف عسكرية كالعريف وهو نائب القائد النقيب، من دون أن يغفل ملابس الجنديّة وتقصيرها وتضييقها في الفصل الرابع من الكتاب، بغرض المنفعة والخدعة الحربية ودفع البرد، ثم كان الفصلان الثامن والتاسع خاتمة لحديثه عن الجيش، وَخَصَّصَهُمَا لإبراز مواقف الجند، وعدم تغيير الأماكن، واستعمالهم لجمع الغنائم¹.

اهتم المصلح الجزائري بالصناعة الحربية أيما اهتمام في كتابه، إذ كانت فحوى الفصل العاشر والحادي عشر والثاني عشر منه على التوالي، فأجبرهم على تعلّم الأدوات الحربية المبتكرة من الأعداء، وفي ذلك دعوة صريحة لتعلمها ولو من الغير بمقتضى حاجة نصرته الإسلام، كما ألح على ضرورة إقامة هذا النوع من الصناعة، كما حث الجند على التدريب عمل التحصينات بحفر الخنادق وحيل الحرب، وزرع الجواسيس في صفوف الأعداء لتحطيم معنويات العدو².

2- الإصلاح السياسي

اشتمل برنامج ابن العنابي الإصلاحي على أمور السياسة، والتي كانت فحوى القسم الثاني من كتابه الموسوم "السعي المحمود في تنظيم الجنود"، في حين شمل القسم الأول منه الأمور الحربية (الجيش) والذي خُصّصت له سبعا وتسعين صفحة من مجموع مائة وعشرين صفحة، محتويا على ستة عشر فصلا جامعا لأمر الجيش والجنود، رابطا فيه بين القوة وحضور الدين وحكمة الاجتهاد، أما الأمور السياسية فقد حوتها الصفحات من التاسعة والتسعين إلى الصفحة الحادية عشر بعد المئة، تناول فيها الرحمة بالضعفاء، وإقامة العدل، وبذل الحقوق لمستحقيها، فبالرغم من تمجيده للعثمانيين، وتفضيلهم على غيرهم، وإظهار دورهم في التاريخ، إلا أنه حذر المعاصرين منهم من الظلم والاستبداد والانحراف عن سيرة أجدادهم قائلا: "إن حشوة القلوب على الضعفاء، والجور في الأحكام الشرعية، ومنع الحقوق من مستحقيها، والإشهار بها لمن لا يستحقها من أسباب خراب الملك وزوال الدولة" ومثل هذه المواقف كفيلة للحكم عليه بالمؤرخ والناقد السياسي والواعظ، عند تناوله لظهور واضمحلال الدولة العباسية لقسوة حكامها وجورهم ومنعهم الحقوق عن أهلها، ذلك أنّ حُكّامها كانوا غير مهتمين بشؤون الرعية، راكضين إلى لذاتهم وإتباع شهواتهم

¹ - قاسي فريدة، مرجع سابق، ص18.

² - نفسه، ص19.

فكانت بذلك مواعظا ودروسا قيمة وقاسية في ذات الوقت ساقها المؤلف إلى سلاطين الدولة العثمانية، مذكرا بطريقة غير مباشرة عاقبة العباسيين وزوال دولتهم بعصيان المماليك الإسلامية لهم، وتسلب التتار عليهم، وإبادة ملكهم، ومحوه من الوجود¹.

عرّف ابن العنابي السياسة في كتابه بأنها مصدر معاملة الرعية، فهي سلطات الحكم وسلوك الحاكم، كما تُطلَق على حسن التدبير وجودة الرأي، وقد أخذها من غيره بكونهما القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال، وهو لا يرى ضرورة تقليد الغرب في التشريع وعلوم السياسة، لعدم حاجة المسلمين لهما ولاسيما العقلية الأوروبية بقوله: إن ما على الكفرة من سياستهم العقلية فنحن في غنى عنه إذ أنّ للمسلمين مرجعتان أساسيتان هما الكتاب والسنة حاملتان للتشريعات السماوية الغنية لهم عن القوانين. الوضعية الأوروبية، وهو بذلك يتفق فيما ذهب إليه معاصره حمدان خوجة حينما حاجج الأفكار الأوروبية ذات الاتجاه الليبرالي بقوانين وأحكام الحضارة الإسلامية².

رأى ابن العنابي قوام مبنى السياسة الشرعية في ثلاثة أمور، فالأول مرتبط بالليونة والمرونة وتبصر الحاكم، والثاني ذو صلة بالمشورة وعدم الاستبداد بالرأي مصحوبا بديموقراطية الحكم، بينما تعلّق الثالث باستعمال ولاية أكفاء غير راغبين في الوظيفة، ذلك أن الولاية هي إمامة، والطلب فيها والسعي نحوها دليل على الخيانة، ثم عرج بعدها إلى ضرورة مشاورة الحاكم للمجالس المختلفة كمجلس العلماء³.

ربط العلامة المصلح نجاح الحاكم وقوته بالعدل "بكون الظلم مصدر خراب الدولة، وفي أهمية الجيش في قوة الدولة، وحرمة العلماء، ووفرة المال، وانتشار العمران، وحذر من محنة الإسراف والترف في صرف أموال الدولة، وجمعها بطريقة الإكراه، وأخذها ممن يعجز عن دفعها، فالملك بناء والجند أساسه، فإذا تقوّى الأساس دام البناء، ويضعف الأساس ينهار الثاني، فلا سلطات إلا بتجنيد، ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بجباية ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل والذي صار أساسا لسائر الأساسات⁴.

¹ - أبو قاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي مُحمّد بن العنابي، مرجع سابق، ص 57.

² - نفسه، ص 58.

³ - فريد حاجي، "مُحمّد ابن محمود (ابن العنابي) وموقفه من حضارة الغرب في القرن 19م"، مجلة الدراسات التاريخية، ع 14، مج 2،

2013م، قسم التاريخ جامعة الجزائر 2، ص 7

⁴ - نفسه، ص 8.

ما من شك أنّ في ذلك تأكيد على تأييد ابن العنابي لسياسات الدول الإسلامية التي انتهجت الإصلاح والتجديد مثل تأييده لمحاولات الوالي المصري مُحمَّد علي الإصلاحية، مثلما بارك جهود محمود الثاني، مؤمنا بأن كل ما يفيد المسلمين في دنياهم ويجعلهم أعزّة أقوىاء أوجب الأخذ به أمام إقرار الشريعة الإسلامية له، ثم نادى إلى تعليم اللغات والعلوم الآلية والصناعية والطب والحساب دون أن يرى في ذلك مخالفة للشرع، لذلك وجدناه مجتهدا ومجدداً في العلوم الدنيوية بينما حثّ الحاكم على تمسّكه بالأمور الأخلاقية والتعاليم الدينية والسياسية لما في ذلك سبيل لضمان نجاحه في أداء واجبه السياسي¹.

كما أوصى بأخذ الحيطة والحذر عند التعامل مع السياسة العامة والمستجد منها خاصة كما دعا المسلمين للاقتباس من حضارة الغرب² كما أنه حذر من مغبة الوقوع في نوعين من الممارسات الأولى هي سياسة التفريط التي تقصي الأحكام الشرعية في مختلف مجالات الحياة والثانية هي سياسة الإفراط التي تفضي إلى التشدد والابتعاد عن روح الشرع والاجحاف في حقوق الناس وبينهما سياسة لا إفراط ولا تفريط وهي ما يدعوا ولاية الأمور للعمل به³.

كما حذر ابن العنابي الحكام من الاستبداد بالرأي⁴ وطالبهم بضرورة حسن الاصغاء لانشغالات واقتراحات رعيّتهم وهذا بناء على ما نبه إليه رسول الله من أن أمر الحكم يبقى مرهونا بسياسة الرحمة والعدل والانصاف فبدونها تزول الدول⁵.

ويرى ابن العنابي أن واجبات السلطة متعددة الجوانب كون الحاكم العام ينهض بكل المجالات كما أكد أن السلطة لا تقوم ولا تستمر إلا بإقامة الميزان القسط الذي قامت به السموات والأرض وإظهار شعائر الدين ونصر المظلوم والأخذ على يد الظالم وكف يد القوي عن الضعيف ومراعاة الفقراء والمساكين وملاحظة ذوي الخصاصة والمستضعفين⁶.

¹ - فريد حاجي، المرجع السابق، ص 8.

² - مُحمَّد بن محمود ابن العنابي، السعي المحمود في نظام الجنود، تقديم وتحقيق: مُحمَّد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص ص 201-204.

³ - نفسه، ص ص 367-36.

⁴ - نفسه، ص 206.

⁵ - نفسه، ص 187.

⁶ - نفسه، ص 53.

3- الإصلاح الاجتماعي والديني

بذل ابن العنابي جهودا جليلة حاول وساهم من خلالها في إصلاح الواقع الاجتماعي الذي آل إليه المجتمع الإسلامي عموما والجزائري على وجه الخصوص، بحكم تدريسه لعلم الحديث والفقه والدين والفتوى في الجامع الكبير، ذلك أن العادة اقتضت على الموكل إليه بمهمة الإفتاء وإلقاء دروس الوعظ والإرشاد في علوم الدين والدنيا، فاستفاد منه العاكف على حلقاته، وتسرّب إليها العام والخاص ممن اقتضت به الحاجة أَنْ يَتَزَوَّدَ بحكم الدين والشريعة في قضية شغلت مسار حياته الدينية والدنيوية.¹

وتجسّد الجانب الاجتماعي من برنامجه الإصلاحي، من خلال بعض من المؤلفات مثل تلك المتعلقة بالمرأة، مبيّنا فيها الإطار الصحيح للمرأة المسلمة من خلال تعاملاتها اليومية، ولمّا كان صلاح المرأة من صلاح المجتمع فقد أفتى في كتابه الموسوم بـ: "رسالة في المرأة" وكل ما تعلق بكيفية صيانة عفتها، وتجنبها مشاكل الزنا، حيث يرى أنه لا يجوز للمرأة كشف وجهها أمام الأجانب درءا للفتنة والشر وان كان ذلك يجوز شرعا ويرى حكم اللبس أغلظ من كشف وجهها للأجانب أو النظر إليها وأنه لا يجوز كشف أي جزء من جسدها.² وهذا ما يثبته قوله في فتوى له عن حجاب المرأة: "وأما مؤاخاة المرأة في الله بهذا الغرض المحرم فإنها من كبائر المعاصي، ... فإنه يعتبر بذلك كافرا مرشدا لاستحلاله الحرام، القطعي، فإن حرمة النظر إلى موضع الزينة من الأجنبية من الأمور القطيعة الثابتة، ودعم فتواه بقول الله تعالى: "وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ"³، ويكون بذلك مؤيدا لما تضمنته العقيدة السمحاء، نافيا بذلك علاقة المرأة بغير محرمها، فكان إجماع الأمة على ذلك وفقا لما أوجبه الدين بَحُبِّها للزندقة التي اعتبرها أداة خزي وتهديد للمجتمعات الإسلامية.⁴

وعموما دعا مُحمَّد بن محمود ابن العنابي من خلال مؤلفاته بصراحة لمحاربة الخرافات والدجل والعمل بما يأمر به الشرع من عدل وإصلاح تمكينا للقيم الأصيلة في الحضارة الإسلامية.

¹ -قاسي فريدة، المرجع السابق، ص22.

² -أبو القاسم سعد الله، المفتي ابن العنابي رائد التجديد الاسلامي، المرجع السابق، ص121

³ -سورة النور: الآية 31.

⁴ - قاسي فريدة، المرجع السابق، ص22.

كما دعا الى رحمة الضعفاء واجراء العدل وبذل الحقوق لمستحقيها كواحد من مصادر القوة لنظام لا يخاف شعبه بل يخيف الأعداء بشعبه القوي بایمانه وثقته التامة الموصولة في حكمه الصارم والعاقل والمخلص في سياسته لله وللوطن وارضاء الضمير الديني والوطني معرضا بأسباب سقوط الأنظمة التي يشيع فيها الظلم والكذب واهمال العلم ورجاله وتقريب الطفليين المرتزقة وذوي اللهو واللعب والطرب كما يقول ومحدرا من الظلم والاستبداد والجور في الحكم ومنع الناس حقوقهم وايتار من لا يستحق¹.

¹-أجقو علي، المرجع السابق، ص23-24.

خلاصة الفصل:

من خلال دراستنا لهذا الفصل استنتجنا أن الأوضاع العامة في الجزائر سواء الاقتصادية، أو السياسية، أو الاجتماعية، أو العسكرية قد تميزت بالازدهار والاستقرار خلال الحكم العثماني، لكنها عانت من الانحطاط والتدهور بداية الاحتلال الفرنسي.

كان لمحمد ابن العنابي مكانة علمية كبيرة في وقت كان الجمود العقلي والركود الفكري منتشرًا فيه مما أهله لشغل مناصب حساسة في الدولة، و كان من المقربين من أصحاب السلطة وذلك لوجهته وحنكته، فقد كان له دور سياسي هام في الجزائر وذلك من خلال أنه كان سفيرًا يبعث به إلى البلدان الأخرى وأيضًا من خلال معارضته لاستعمار والوقوف ضد قراراته، بالإضافة لدوره العسكري من خلال حثه على إعداد جيش قوي و على إصلاح العسكري من خلال كتابه السعي المحمود في نظام الجنود، كما أن للمفتي ابن العنابي دور هام في المجال الثقافي من خلال مؤلفاته الكثيرة و المتنوعة.

الفصل الثالث

ابن العنابي والإحتلال الفرنسي

أولاً: موقف ابن العنابي من سياسة كلوزيل اتجاه الأوقاف

ثانياً: مقاومة ابن العنابي للاحتلال الفرنسي

ثالثاً: موقف الاحتلال من نشاط ابن العنابي

رابعاً: حياة ابن العنابي في المنفى ووفاته

تمهيد

من خلال دراستنا في الفصل الثاني للوضع الثقافي والسياسي والعسكري في الجزائر استخلصنا أن البيئة التي عاش فيها الشيخ ابن العنابي تميزت بالركود الفكري والثقافي، خاصة بعد غزو فرنسا للجزائر والتي أثرت على مثقفيتها وعلمائها، ومنهم محمد بن العنابي الذي واجه الاستعمار فكريا مما جعل الجنرال كلوزيل يدبر مؤامرة ضده وينفيه من وطنه دون السماح له حتى بترتيب أموره، وهذا يدل على أن أفكار بن العنابي شكلت خطرا على المستعمر الفرنسي.

أولا: موقف ابن العنابي من سياسة كلوزيل اتجاه الأوقاف

تعد الفترة التي تتوزع على القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين أخرج الفترات التاريخية لا للجزائر فحسب، ولكن بالنسبة للدولة العثمانية والعالم الإسلامي قاطبة وقد شهد ابن العنابي أحداثا كثيرة منها انحطاط العالم الإسلامي، ومعاصرتة للثورة الفرنسية وما نتج عنها من أحداث مست جوانب متعددة من الحضارة الإسلامية، كما عايش حروب خارجية في بلاده الجزائر ضد الانكليز والأمريكان والفرنسيين خاصة وصراعات بين الطائفة التركية نفسها¹.

وما تجدر الإشارة إليه أن القضية الجزائرية كانت قد درست في مؤتمر فيينا سنة 1815م ثم أعيد طرحها في مؤتمر إكس لا شايبيل² عام 1818م، وهكذا في يوم 05 سبتمبر رست سفينتان، الأولى فرنسية والثانية بريطانية، في ميناء مدينة الجزائر بغرض تقديم قرارات مؤتمر "إكس لا شايبيل" إلى الداى حسين، ومضمونها إيقاف عمليات "القرصنة" وإلغاء الإسترقاق، غير أن الداى لم يستجب للإنذار الأوروبي ولم يعره أي اهتمام

¹ - أحمد عصماني، "النخبة الجزائرية وموقفها من الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر 1830م"، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، ع17، جامعة البليدة 2، جوان 2017م، ص6.

² - مؤتمر اكس لا شايبيل 1818م: يعتبر مؤتمر اكس لا شايبيل الذي عقد بألمانيا آخر مؤتمر لتسوية القضايا الأوروبية العالقة ضمن جدول أعمالها الرئيسية وهي نظر في قضية سحب القوات الحلفاء المتواجدة على أراضيها، وكانت قضية القرصنة المغاربية والجزائر خصوصا في البحر الأبيض المتوسط ضمن جدول أعمالها أيضا. أنظر: بو عبد الله جخدان، "المسألة الجزائرية في المؤتمرات الدولية 1814م-1818م مؤتمر إكس لا شايبيل 1818م"، مجلة العصور، ع34-35، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، أفريل جوان 2017م، ص1.

وفي 25 ماي 1830م انطلقت الحملة الفرنسية الصليبية من ميناء طولون تجاه الشواطئ الجزائرية التي وصلتها يوم 13 جوان 1830م وشرعت في عملية الإنزال مباشرة في اليوم الموالي، وقد واجهتها جيوش الداوي حسين بقيادة صهره إبراهيم باشا¹ الذي لم يكن يملك لا الخبرة العسكرية ولا الحنكة القيادية، وقد انتقد الشريف الزهار هذا القائد غير المناسب بأنه: "لم يكن قائد ممتاز في يوم من الأيام ولم يعرف الشيء الكثير عن التكتيك الحربي فهو مثل الحمار لا يعرف إلا الأكل والنكاح، فكان لزاماً أن تنهزم جيوشه وفر مع بعض مقربيه إلى ضواحي التيطري، وكانت لعملية فرار إبراهيم باشا قائد الجيش الجزائري انعكاسات² سلبية وخطيرة على معنويات الجيش مما دفع بالداوي حسين³ إلى كسب ود السكان بإستدعاء المفتي الحنفي بن العنابي⁴ ليطلب منه جمع الشعب وإقناع الناس بالجهاد دفاعاً عن الإسلام والبلاد وقيادة المقاومة لعرقلة تقدم الغزاة الفرنسيين، فقبل بالمهمة وتقدم الصفوف، لكن الأمر كان قد قضي من قبل، وعند الغروب كان الجيش قد اقترب من حصن الإمبراطور، وبهذا فقد حسم الموقف لصالح الفرنسيين، فاضطر الداوي إلى توقيع

¹ - إبراهيم باشا 1790م-1848م: بن محمد علي باشا قائد، بعيد المطامح، من ولاية مصر، ولد في نصرتلي بالقرب من قولة بالروملي وقدم مصر مع طوسون بن محمد علي سنة 1220 هـ فتعلم بها وأرسله أبوه محمد علي سنة 1231 هـ بحملة إلى الحجاز ونجد، ثم جعله قائداً للحملة المصرية في حرب المورة سنة 1239 هـ وفي سنة 1247 هـ سيره بجيش إلى سورية، فاستولى على عكة ودمشق وحمص وحلب، وانقادت له بلاد الشام. أنظر: خير الدين الزركلي، المصدر السابق، ص70.

² - محفوظ قداش، جزائر الجزائريين تاريخ الجزائر 1830م-1954م، ترنجد المعراجي، منشورات Anep، 2008م، ص22.

³ - الداوي حسين: هو حسين بن حسين ولد بقرية فرله الواقعة على الشاطئ الجنوبي في أزمير سنة 1767م، نشأ في اسطنبول وتربى على حفظ القرآن، تعلم القراءة والكتابة واكتسب حنكة وتدريب في المدارس العسكرية، التركية، زاول دراسته كجندي بسيط، أصبح من رجال المدفعية بالجيش العثماني، ومع قدومه للجزائر انخرط في السلك العسكري، ارتقى من جندي في الأوجاق إلى عضو بالديوان، مما سمح له أن يصبح وكيل حوش. أنظر: ناصر الدين سعيدوني، ورفات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص351.

⁴ - ليس من المؤكد أن المفتي الحنفي وقت دخول الفرنسيين للجزائر كان هو ابن العنابي فقد عرفنا أسماء عدد من المفتين تولوا في الفترة القصيرة 1244 هـ - 1828 م إلى 1251 هـ - 1835 م من بينهم ابن العنابي مع إغفال تواريخ تعيين بعضهم، وهذا الغموض في تلك الفترة الدقيقة لا يساعد على فهم الحوادث التي سيرد فيها اسم ابن العنابي، ومن هذا الغموض أيضاً أن وظيفة المفتي الحنفي قد تعرضت إلى تقلبات خلال السنة الأولى من الاحتلال مع عدم ذكر اسم المفتي المعني بالأمر، فقد جاء في أخبار الحملة الفرنسية على الجزائر أن الداوي حسين باشا قد عزل في آخر لحظة قبل دخول الفرنسيين، المفتي الحنفي التركي وعين بدله مفتياً عربياً من أهل البلاد آملاً أن يكون ذلك سبباً في التفاف الجزائريين حوله في مقاومته للجيش الفرنسي، فمن هو المفتي المعزول؟ ومن هو المفتي الجديد؟ هذه نقطة تظل بدون جواب أيضاً. كذلك تتحدث الأخبار عن أن الباشا قد استدعى بعد هزيمة جيشه في واقعة سطاوي، المفتي الحنفي، شيخ الإسلام وسلمه سيفاً وطلب منه أن يدعو الناس للجهاد دفاعاً عن البلاد ولكن هذه الأخبار لا تذكر اسم هذا المفتي. أنظر: أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الاسلامي محمد ابن العنابي، المرجع السابق، ص40.

معاهدة الاستسلام، ومباشرة بدأت فرنسا في مشروعها الاستعماري الهادف إلى تحطيم أركان الدولة الجزائرية¹، ومن بين أهم المؤسسات التي مسها هذا العدوان المؤسسات الوقفية التي نظرت إليها سلطات الاحتلال بأنها إحدى العراقيل الحائلة دون تحقيق سياسة التوسع الاستيطاني التي كانت تسعى إلى التمكين لها، وتنافس المبادئ الاقتصادية التي تروج لها، حيث أن الوقف في حد ذاته جهاز إداري ومؤسسة اقتصادية فعالة تحول دون المساس بالمقومات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية للجزائريين، وقد كان الاستعمار الفرنسي يدرك دور الأوقاف في بناء وحدة الأمة ورعاية عقيدتها من خلال مؤسساتها التعليمية والاقتصادية والاجتماعية كل هذا جعل فرنسا تسعى جاهدة لاستصدار جملة من القوانين والنصوص التنظيمية² من أجل رفع الحصانة عن الأملاك الوقفية قصد إدخال هذه الأملاك في نطاق التعامل التجاري والتبادل العقاري كي يسهل على المستوطنين امتلاكها، وقد كان لها ذلك بإصدار دي بومون لمرسوم 08 سبتمبر 1830م القاضي بمصادرة الأوقاف (الحبوس) والاستيلاء عليها لتصبح ممتلكات خاضعة لإدارة الاحتلال وله حق التصرف فيها، ليصدر في اليوم الموالي قرارا آخر يعطي من خلاله الحق لنفسه في التسيير والتصرف للأملاك الدينية بالتأجير والكراء، وتوزيع الربوع على المستحقين والتي تمت لحساب الحكومة الفرنسية كما اصدر مرسوم آخر في 07 ديسمبر 1830م يقضي بالسماح للأوروبيين بامتلاك أراضي الوقف، وقد طلبت السلطات الفرنسية من المفتي ابن العنابي التعاون معها فرفض، بل تزعم حركة المعارضة لنزع الممتلكات الإسلامية، ويبدأ هذا التوتر، حينما أجبر كلوزيل المفتي على تسليمه بعض المساجد في المدينة لجعلها مستشفيات للجيش، متعهداً له باستعمالها مدة شهرين فقط. كما كان ابن العنابي شديد النقد للسلطات الفرنسية على خرقها للاتفاق الموقع بين الداوي حسين باشا والكونت دي بومون³، وذلك بعد إصدار الفرنسيين لهذه القوانين الجائرة التي تقضي بحق التصرف التام في الأملاك الدينية بالتأجير أو الكراء أو حتى البيع أو الهبة، دنسوا المقابر واستخدموا الجثث والعظام في تصنيع الكربون، ودمروا المنازل لبناء قواعد

¹ - محفوظ قداش، المصدر السابق، ص22.

² - نفسه، ص23.

³ - أنظر الملحق رقم 01، ص78.

عسكرية وقد كاتب ابن العنابي الجنرال كلوزيل¹ عدة مرات في هذا الشأن، حيث اتسمت لهجته بالنقد للسلطات الاستعمارية على خرقها² للاتفاق الموقع بين الداي حسين والكونت دي بورمون³ وخاصة المادة الخامسة منه ثم بدأ بعد عدم استجابة السلطات الفرنسية لمطالبه، بدأ بمراسلة زعماء القبائل يحثهم على الثورة والمقاومة والجهاد ضد الكفار، وهو ما أدى لتوتر العلاقة بين الطرفين ثم تأزمها وقد تفتنت له السلطات الاستعمارية، وقد أكد ذلك بن العنابي نفسه بعد نفيه، فتم توقيفه وسجنه بأمر من الجنرال الفرنسي كلوزيل⁴.

¹ - كلوزيل : ولد يوم 12 ديسمبر 1772م في poix Mire بفرنسا اشغل بعدة وظائف في الجيش ثم السفارة في اسبانيا وقيادة الجيش في سان دومينيك وأرسل إلى هولندا كما حكم عليه بالإعدام 1816م وعفي عنه بعدها تول القيادة بعد بورمون في 7 أوت 1830م وأصبح ماريشال فرنسا سنة 1831م ثم عين مرة أخرى في الجزائر سنة 1835م وعزل بعد فشله في حملة قسنطينة 1837م توفي في 1843م. أنظر: أبو قاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1830م-1900م، ج1، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، 1992م، ص36.

² - محفوظ قداش، المصدر السابق، ص23.

³ - دي بورمون: كونت دي بورمون كان وزيراً للحربية في عهد شارل العاشر وتولى قيادة الحملة الفرنسية، وقد عزل بعد أقل من شهر من احتلال مدينة الجزائر. لأن انقلاباً حدث في فرنسا أطاح بعرش شارل العاشر وجاء بالملك لويس فيليب يوليو 1830م. أنظر: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، جامعة الجزائر، 1996م، ص23.

⁴ - محفوظ قداش، المصدر السابق، ص23.

ثانيا: مقاومة ابن العنابي للاحتلال الفرنسي

بعد هزيمة جيش إبراهيم آغا في معركة سطاوالي¹ 19 جوان 1830م وفراره تاركا الميدان بما فيه ومن فيه عدة وعتادا، كانت هناك انعكاسات سلبية وخطيرة على معنويات الجيش، فاضطر الداوي حسين لتكليف ابن العنابي بقيادة الجهاد².

قبل ابن العنابي بالمهمة وتقدم الصفوف، ونجح مع الداوي في إعادة تجميع الصفوف من جديد ورفدها بالمجاهدين، والتقى الجيش الفرنسي مع الجيش الجزائري في معركة سطوالي الشهيرة، والتي حتى الساعة 11.45 كانت بشائر النصر تلوح في الأفق وبدأ الجنود الفرنسيين في التراجع تاركين جثث قتلاهم على قارعة الطريق، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان إذ انسحبت فرقة المقاتلين الزواوة من ميدان المعركة وافرادها يصرخون لقد هزمنا، لقد هزمنا"، فتشتت الصفوف وعاد الفرنسيون إلى الميدان يلاحقون أفراد الجيش الجزائري الفارين، وهكذا حسم الموقف لصالح الفرنسيين، فاضطر الداوي إلى توقيع معاهدة الاستسلام، وبعد هذه الواقعة الأليمة لزم ابن العنابي بيته واتخذ موقف المؤيد للفرنسيين ظاهريا محاولا ما أمكنه إلزام قوات الاحتلال بما تقتضيه المعاهدة التي أمضاها الداوي حسين وقائد قوات الاحتلال الجنرال دي بورمون³.

ولكنه في واقع الأمر كان على تواصل بزعماء القبائل وكانوا هم الآخرون على تواصل معه من أجل تنظيم المقاومة والجهاد ضد المحتلين الكفار، خاصة وأنه عايش مراحل الاحتلال، الذي سبقه حصار بحري لإنساني دام ثلاث سنوات، مع ما يرافق أمثال هذه الأحداث من تقتيل إجرامي وتعذيب وطرده ونفي وتهديم للممتلكات وانتهاك للحرمت وتدنيس وتدمير للمقدسات⁴.

¹ - معركة أسطاوالي: و التي وقعت يوم 19 جوان 1830 بين الجيش الجزائري، والقوات الفرنسية الغازية، وذلك بعد خمسة أيام من نزول جيش الحملة الفرنسية على شاطئ سيدي فرج، وكان من نتائجها انهزام القوات الجزائرية بعد أن كانت منتصرة في بداية القتال، ثم فشلت في صد الهجوم المضاد الفرنسي، وهي الهزيمة التي فتحت الطريق أمام جيش الحملة الفرنسية للتقدم في اتجاه مدينة الجزائر واحتلالها، بعد استسلام الداوي حسين يوم 5 جويلية 1830. أنظر: أحمد بوزراع، "دراسة عسكرية لمعركة سطاوالي يوم 19 جوان 1830م"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، ع2، مج5، جامعة الجزائر، جويلية 2023م، ص1.

² - حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص90.

³ - أنظر الملحق رقم 02، ص79.

⁴ - حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص14

وبعد أن قامت فرنسا بمصادرة الممتلكات خاصة المؤسسات الوقفية والخيرية لجأ حضر الجزائري الى عدة طرق للتعبير عن رفضهم لهذه السياسة وفي إطار ذلك جرد العلماء من ممتلكاتهم وسلبت أموالهم وانتزعت منهم مناصبهم.¹ وقد لقي قرار 7 ديسمبر 1830م معارضة شديدة من العلماء ورجال الدين من أمثال ابن الكبابي وابن العنابي فبحكم مناصبهم تمكنوا من التعبير عن تدميرهم من سياسة كلوزيل تجاه الأوقاف فلجأوا الى تقديم الشكايات والعرائض للسلطة الحاكمة.²

وقد ذكر حمدان بن عثمان خوجة أن ابن العنابي أقلق الجنرال كلوزيل بكتابات و مراسلاته.³ وأصبح ابن العنابي موضع شبهة من سلطات الاحتلال خاصة عندما طلب منه الحاكم العسكري الفرنسي كلوزيل تسليم بعض المساجد والممتلكات الوقفية.⁴

لتحويلها إلى ثكنات ومخازن ومستشفيات للجيش فلم يجد انصياعا منه، على غرار من تعامل معهم من العلماء وقد اتسمت لهجة ابن العنابي بالنقد للسلطات الفرنسية على خرقها للاتفاق الموقع بين الداوي حسين والكونت دي بورمون وخاصة المادة الخامسة من الاتفاق، مما جعل كلوزيل يضيق به ذرعاً، فقرر وضع حد له. ولما لم ينفع معه الترغيب والترهيب، اقتحموا حرمة إقامته، ولما استشعر مجيئهم قام على الفور برمي الوثائق والمراسلات في بيت الخلاء، ففتش العساكر المنزل ولم يجدوا شيئاً، فغادروا المكان، ولكن ظلوا متربصين به، ويصرحون بخطرهم عليهم وتأثيره على الأمن العام في البلاد وتحريضه للأهالي على الثورة، وبالفعل تم إلقاء القبض عليه من طرف رجال الدرك وقادوه إلى السجن، كما أهينت أسرته بدعوى تدينه والتخطيط لتدبير مؤامرة ضد الفرنسيين، وإعادة الحكم الإسلامي للجزائر.⁵

¹ - أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث: بداية الاحتلال، ص 66-67.

² - علي محمد الصلابي، كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ص 380.

³ - خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، حلب للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977، ص 28.

⁴ - حنيفي هلايلي، المرجع السابق، ص 15.

⁵ - نفسه، ص 14-15.

ثالثاً: موقف الاحتلال من نشاط ابن العنابي

إن النشاط الذي أظهره ابن العنابي، إتحاد إعتداءات السلطات الفرنسية تجسدت في عرائض وشكاوى ورسائل، تعرض فيها لوضع الجزائر بعد الاحتلال وتطالب بحقوق الجزائريين، هذه المراسلات تثبت تورط المصلحين حسب تعبير الفرنسيين في مؤامرة ضد فرنسا، ومن هذا التصور بدأت سلسلة من عمليات النفي والسجن ضدهم كل حسب نشاطهم.

وقد أصدر المارشال كلوزيل في 26 سبتمبر 1836م مرسوماً يذكر فيه بناءً على تصرف بعض الأهالي الذين رفضوا فك رموز المراسلات المكتوبة والمشفرة والأوراق المصادرة في منازلهم فهذا دليل على تأمرهم مع الأعداء أو التخطيط لمؤامرة وتم إيقافهم بموجب المادة 18 من المرسوم التنظيمي لوزير الحربية، المؤرخ في 2 أوت الماضي قررنا نفيهم من ممتلكات فرنسا في شمال إفريقيا في أقرب وقت ممكن وسيظلون حتى ذلك الحين تحت الحراسة المشددة¹.

ابن العنابي هو الآخر تعرض إلى النفي بسبب تحركاته و نشاطه في الدفاع عن الأوقاف الإسلامية، فلم يجد كلوزيل حلاً إلا إبعاده نهائياً من البلاد، ليضع حداً لما يحدث فحيكت في حقه مؤامرة قرر فيها كلوزيل سجن المفتي ثم نفيه، ولما عجزوا عن وجود دليل مادي ضده لجأوا إلى استدراجه في الكلام وذلك بإرسال من يتجسس عليه من العملاء والمتعاونين مع الاحتلال من أبناء جلدته لتوريطه: فقد أسر ذات مرة في جلسة جمعته ، مع من كان يتواصل معهم حول مقدرته على تسلم زمام الحكم وتنظيم جيش كبير يبلغ ثلاثين ألفاً، فسُجن، وتعرض وأسرته للإهانة، ويفصل حمدان خوجة في الحادثة قائلاً: " زار مترجم الجيش الفرنسي المفتي بن العنابي و أخبره بأن القائد العام ينوي الجلاء عن الجزائر و يرغب في تسليمه الحكم ، فهل يتمكن من تنظيم جيش وقوة كافية للحفاظ على الهدوء في البلاد ، والدفاع عنها؟ فأجاب المفتي: لما يحين الوقت سأفعل المستحيل من أجل إعادة التنظيم، فسأله المترجم: من أين تجمعون الجيش، هل من الضواحي فقط، أم أن مصادركم متوفرة في كل الجزائر ؟ فأجابه المفتي: في المدن، وكل الإيالة، فعندما يتوجب ذلك، فإنه باستطاعتي جمع ثلاث آلاف رجل في خدمتي ". وقام المترجم بإخفاء رجلين ليشهدوا على المحادثة².

¹ - حنفي هلايلي، المرجع السابق، ص41.

² - نفسه، ص42.

يوصل حمدان قائلاً: "هذه هي الوسائل التي إستخدمت لإيقاف المفتي"، وينتقد الجنرال كلوزيل " في قوله: " هذه هي المبادئ التي طبقها السيد الحاكم، عندما أراد أن يقوم بعمل ظالم ينفي هذا أو يسلب أملاك آخر فكل الوسائل كانت مسموحة، ويجب أن نعتبر أننا محظوظين بكوننا عوقبنا، سواء بالنفي، أو بفقدان الممتلكات"¹.

عملت فرنسا على إضعاف السلطة القضائية عن قصد ومن سمعة ومكانة المفتين وكان مُحمَّد بن محمود بن العنابي أول من نفته السلطات الفرنسية بعد الاحتلال مباشرة.² حيث أمر الجنرال الفرنسي كلوزيل بنفيه فوراً، بدعوى تدبير مؤامرة ضد الفرنسيين وإعادة الحكم الإسلامي للجزائر، وتعرّضت أسرته للاضطهاد والإهانة، ولم يُمهله وقتاً كافياً لترتيب أموره، فاضطر المترجم للرحيل مجبراً،³ ولم يحصل له حمدان بن عثمان خوجة على مهلة عشرين يوماً من أجل بيع أملاكه وتصفية ديونه إلا بصعوبة كبيرة، ثم ترك الجزائر لآخر مرة قبل نهاية عام 1247هـ - 1831م متجهاً إلى مصر، ويرجع سعد الله خروجه من الجزائر ليس فقط الى هذه المضايقات، بل أيضاً الى تخوفه من وشاية مبغضيه وما أكثرهم واختلاقهم رسائل على لسانه ضد الفرنسيين، فقد كان منشغلاً بالتحريض على جهاد المحتل الصليبي، وهؤلاء يستغلون تسلُّط العدو ويضعون أيديهم في يده لتحقيق مصالحهم الشخصية وتثبيت أركانهم والتخلُّص من المكدر عليهم صفوهم، حتى لو كان أحد رؤوس الأمة والمخاطرين بحياتهم لأجل نصرتها.⁴

ويذكر أبو القاسم سعد الله أن تاريخ النفي غير معروف ولكنه بدون شك كان في خريف أو شتاء 1830م - 1831م لأن كلوزيل تولى المنصب في الجزائر سبتمبر 1830م.⁵

وبنفي ابن العنابي أسدل الستار على نشاطه، وفقدت الجزائر واحداً من الشخصيات المهمة والمؤثرة، توجه بأسرته إلى مصر وأقام بالإسكندرية وهناك ولاه "مُحمَّد علي" وظيفة الفتوى الحنفية ولا زالت عائلة ابن العنابي بالإسكندرية إلى اليوم وتعرف بأسرة "الجزائري" توفي العنابي بالإسكندرية سنة 1851م.⁶

¹ - فريد حاجي، المرجع السابق، ص 9.

² - نفسه، ص 9.

³ - محفوظ قداش، المصدر السابق، ص 23.

⁴ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الاسلامي مُحمَّد ابن العنابي، المرجع السابق، ص 41.

⁵ - نفسه، ص 42.

⁶ - نفسه، ص 42.

وبهذا يكون المفتي ابن العنابي أول من نفته السلطات الفرنسية بعد الإحتلال مباشرة، وعلى إثر إبعاد مفتيي العاصمة الشيخين مصطفى بن الكبابي المالكي ومُحَمَّد بن العنابي الحنفي، وبنفيهما إلى المشرق ادعت الحكومة الفرنسية فقدانها لصكوك الأوقاف وضياع سجلاتها¹.

وهكذا نجد أن ابن العنابي قد حمل لواء المقاومة ضد الإحتلال الفرنسي ولما عجز عن اسكات صوته الذي يصدح بالحق ضد نظام المحتل والحكم الجائر ولما أخفق في احتواءه بالمناصب والاعراض أقدم على اسكات صوته نهائيا وابعاده عن الجزائر الى مصر بلا عودة².

¹ - محفوظ قداش، المصدر السابق، ص24.

² - نفسه، ص24.

رابعاً: حياة ابن العنابي في المنفى ووفاته

لا يُستغرب إذا عُلِمَ أن بعض مشايخ عصره آذوه وكادوا له حتى آخر عمره واتهموه بما يُتَّهمُ به أمثاله المصلحون الداعون للسنة، فقالوا: إنه خارجي زنديق! يسعى لضعف الديانة المحمدية ودروسها! وقد ذكر ذلك عبد الحميد بك أنهم لم يكتفوا بالقول، بل سعوا ضده عند الحاكم إلى أن عزله، وقال: "وقصدهم في ذلك ارتزاقهم من الفتاوى على الاختلاف في المذاهب وأقوالها"¹.

والجدير بالذكر أن الكثير من علماء ذلك الزمان من أوجس خيفة من الاتصال بعلم الغرب، لا استنكار لذلك العلم في حد ذاته ولكن إشفاقاً مما يؤدي إليه الاتصال من النتائج الوخيمة، فاتخذوا خطة سلبية وسمها من درسها من الأوروبيين باسم "الخطة الوهابية"، وقد روى مؤرخ الحروب الصليبية "ميشو" في رسائله من مصر سنة 1831م في حديثه مع عالم من هذا الطراز وهو مفتي المنصورة، قال المفتي: "إن مثل الشرقيين في محاكمتهم الغربيين والنقل عنهم مثل الرجل الكفيف الذي ارتطم في وهدة يدعوا المارة إلى مده بقبس من النار، وماذا ينفعه القبس؟ أنتم معشر الغربيين تتهمون الشرقيين بأنهم جامدون وأنهم حيث كانوا، ولكنكم أنتم لا تعرفون متى وأين تقفون، وبذلك تذهبون إلى أبعد مما تقصدون، وعندي أن مجاوزة الهدف أسوأ من العجز عدم بلوغه، هذه مثلاً نظرياتكم السياسية الجديدة، هل نفعت عامتكم حقاً؟ أنشئت النور؟ لا لم تؤد - فيما سمعت - إلا إلى الثوران والاضطراب، فما أشبه مدينتكم بتلك الوسائل المتخمرة التي تحطم الإناء الذي نصبها فيه"².

وهذا المستشرق "الين" يوضح لنا سوء ظن العامة بمن عاشر الأوروبيين من المسلمين، يصور قال: "كنت جالسا عند أحد بائعي الكتب فأتى رجل يطلب نسخة من رحلة رفاعه، فسأل أحد الحاضرين عما في هذا الكتاب، فتطوع رجل لإجابته بطريقة تهكمية تبين رأي العامة فيه، قال ذلك المتطوع: أنا أقص عليك نبأ هذه الرحلة بالحق، إنها تحتوي على وصف سفر رفاعه من الإسكندرية لمرسيليا وعلى ما جرى له في أثناء هذا السفر عندما سكر وعربد، عند ذلك أمر الربان بشد وثاقه إلى صاري السفينة وجلده، ثم نزل بلاد الإفرنج حيث طاب له لحم الخنزير ومعاشرة النساء الإفرنجيات، ثم بعد أن ارتكب من الموبقات كل ما يعد له مقعده من النار عاد إلى مصر"³.

¹ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الاسلامي مُحمَّد ابن العنابي، المرجع السابق، ص42.

² - فريد حاجي، المرجع السابق، ص10.

³ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الاسلامي مُحمَّد ابن العنابي، المرجع السابق، ص43.

وأسباب عزله كما أوضحناه سابقاً، هو أن المشكلات كثرت من أصحاب الدعاوى بسبب انحراف المفتين و تماديهم في طلب الرشاوى وذلك على اختلاف مذاهبهم، فأدى هذا الأمر إلى تضاييق وتدمير محمد علي باشا أواخر أيامه، وربما تخوفه من اضطراب الأوضاع الأمنية والاجتماعية بسبب سقوط هيئة المفتين و القضاة لدى العامة، فطلب من المترجم أن يؤلف كتاباً يجمع فيه ما رجح من أقوال الأئمة الأربعة ويعتمد في القضاء، فألف كتاب: صيانة الرياسة في القضاء والسياسة، إلا أنه بمجرد ما ولي عباس باشا سنة 1265هـ سعى بعض المشايخ من أصحاب المصالح الشخصية في إبطال هذا الكتاب، وما زالوا يكيّدون له عند والي ويتهمونه زوراً بالعظائم حتى نقم عليه وعزله سنة 1266هـ، وولى مكانه تلميذه الشيخ محمد البنا، فلزم المفتي بيته معتزلاً العامة حتى وافاه الأجل¹.

والحقيقة أن عباس باشا لم يظلم بن العنابي فقط، بل ظلم الكثير من المصلحين أمثاله حتى أنه قال فيه أحد المؤرخين "كان عباس حاكماً مستبداً عدواً لكل حركة إصلاح يستند في حكمه إلى قوتين: الرهبة، والجمود، ثم يضيف أيضاً أن من أول مظاهر الجمود إغلاق المدارس التي شيدها جده وإبطال المصانع والمعامل، في حين ذهب مؤرخ آخر بأنه لما ولي مصر انصرف إلى اللهو، وأهمّل الحكم، وكان يتحرك برأي القنصل الإنكليزي².

وأما عن وفاته فقد توفي المفتي الجزائري محمد بن العنابي رحمه الله تعالى مغرباً عن وطنه في صمت بمنزله في عزلة تامة لا يتصل به أحد إلا المقربين من أبناء بلده، متفرغاً للتأليف والرد على الفتاوى التي كانت تأتيه من حين لآخر، وذلك في ربيع الآخر من سنة (1267هـ-1851م)، وهو التاريخ الذي يكاد يجمع عليه المؤرخون، في حين يذهب إسماعيل باشا البغدادي أن كتاب الجوهر الفريد في علم التجويد فرغ من كتابته بخطه 1285هـ خمس وثمانين ومائتين وألف، مع العلم أنه الوحيد الذي ذكر أنه كان حياً إلى غاية هذا التاريخ فيما توفر لي من مراجع³.

والذي لا يختلف عليه إثنان هو أنه مات عن عمر ناهز سبع وسبعين سنة أفناه خدمة بلده الجزائر مدافعاً عنها ومناهضاً للاحتلال الفرنسي والسياسة الاستعمارية التي انتهجتها فرنسا، وتاركاً بصمته كمصلح من أوائل المصلحين في العالم العربي والإسلامي، بل ومن السابقين في عصره بلا منازع، خاصة في المجال

¹ - محمد صبري، تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م، ص95.

² - نفسه، ص95.

³ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد ابن العنابي، المرجع السابق، ص41.

السياسي والعسكري، إضافة إلى فكره الإصلاحية في المجالين الديني والاجتماعي وذلك في مدينة الإسكندرية بمصر، وهي المدينة التي اختارها لمنفاه بعيدا عن وطنه وأهله، وقد أَرَّخَ وفاته الشاعر مُحَمَّدُ عاقل بقوله: "اليوم رمس مفتي الإسكندرية"، ومموته فقد العالم الإسلامي عامة والجزائر خاصة عالما من العلماء الأفاضل والقلائل الذين كانت لهم الجرأة بفضل علمه وتبحره في مختلف العلوم معتمدا على القياس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، مدعما أفكاره بالحجج والبراهين من طرق باب الاجتهاد والتجديد لهذا الدين الذي ظل مغلقا لقرون لم يستطع أن يقربه من كان قبله من العلماء أو معاصريه إلا من بعض المحاولات القليلة والمحتشمة، حاملا بذلك لواء الإصلاح والتجديد، كما كان له كامل الفضل في أن يحدوا حذوه من جاء بعده من العلماء فاتحا طريق الإصلاح والتجديد أمامهم على مصراعيه¹.

وبالرغم من رحيله إلا أن ذكره الطيبة ومؤلفاته تأبى أن تنسى ذكره ما دامت كتبه وأفكاره تتدارسها الأجيال، والله در الجاحظ حين قال: يذهب الحكيم وتبقى كتبه، ويذهب العقل ويبقى أثره..."، كما قد أوجز ذلك "موفق الدين" البغدادي في هذا الشأن أيضا بقوله: "العلماء لا يموتون أبدا وإنهم يخلدون في أعمالهم ومؤلفاتهم وآثارهم الباقية وعلمهم النافع، والعالم الحق من يضع لبنة في بناء العلم العظيم"².

وقد بقيت سلالة وذرية بن العنابي حتى اليوم بالإسكندرية، وتُعرف بأسرة المفتي الجزائري، فرحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنانه³.

ومن خلال ما تم ذكره نجد المفتي بن العنابي قد قام بدوره الديني والسياسي على أكمل وجه، حيث لعب الدور الأول وهو بياشر وظيفة الإفتاء ويتصدر للتدريس ويمنح الإجازات لتلاميذه والمعجبين بعلمه، أما الدور السياسي فيتمثل بصلته بدايات الجزائر وفي موقفه من الاحتلال الفرنسي لبلاده، إذ حمل مع عالم آخر وهو مفتي المالكية بن لكبابي لواء المقاومة الثقافية للاحتلال الفرنسي، الذي عندما عجز عن إسكات صوتيهما اللذان كانا يصدحا بالحق أمام نظام محتل، وحكم جائر، وأيضا إخفاقه في احتوائهما بالمناصب وأنواع الإغراءات الأخرى، أقدم على نفيهما وإبعادهما من الجزائر إلى مصر⁴.

¹ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي مُحَمَّدُ ابْنُ الْعَنَابِيِّ، المرجع السابق، ص42.

² - فوزية لزغم، المرجع السابق، ص82.

³ - نفسه، ص82.

⁴ - علي أجقو، المرجع السابق، ص21.

وقد تنوعت عبارات الثناء والمديح على المفتي بن العنابي من جلة من العلماء ممن عاصروه وجاءوا بعده، فيها إبراز لمنزلته الرفيعة ومكانته الكبيرة، فمن عبارات العلماء في مدحه والثناء عليه وتوثيقه ما قاله عنه تلميذه الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيء "لقيت بمصر مفتي الجزائر مُحمَّد بن محمود الجزائري الحنفي الأثري فوجدته حسن العقيدة طويل الباع في العلوم الشرعية، لينسبه بعدها للمصريين واصفا إياه بعبارة "ومن المصريين الشيخ العلامة مُحمَّد بن محمود بن مُحمَّد الجزائري الحنفي... وغيرهم من علماء مصر الأعلام"، وبطبيعة الحال يقصد هنا أنه نزيل مصر، ولو أراد خلاف هذا الرأي ما قال عنه في نفس الفكرة "الجزائري" وقال عنه أيضا في كتابه مصباح الظلام: "وقد شهد أهل العلم والفضل من أهل عصره" لينعته أيضا بأنه: "من أكابر أهل عصره، كما زاد في مدحه واصفا إياه أنه: "من الفضلاء والأذكياء"¹.

وقد نوه به عبد الحميد بك في تاريخه قائلا: "وكان رحمه الله تعالى إماماً فاضلاً، بالعبادات والأحكام في المذاهب الأربعة على اختلافها، واختلاف أقوالها، والراجح منها، والضعيف فيها، وعالماً في باقي المنقول والمعقول، والسياسات العمومية والخصوصية الخارجية والداخلية، وله إنشاءات وشعر"².

وقال مُحمَّد بيرم الرابع: "إلى حضرة وحيد زمانه، العالم الكبير، والرئيس النحرير، والمقدم في الفتيا الحنفية بالمشرق بلا نكير، شيخ الإسلام أبي عبد الله سيدي مُحمَّد بن محمود العنابي المفتي الآن بثغر الإسكندرية"³ وقد أثنى عليه شيخ المؤرخين بأن خصه بكتاب كاملاً سماه من خلاله "رائد التجديد الإسلامي"⁴، ومما جاء فيه قوله: "والواقع إنني بعد أن درست ابن العنابي تأكدت أنه يحق للجزائر الحديثة أن تفخر به وبأمثاله كحمدان الذين سبقوا علماء العربية والإسلام في طرح قضية التجديد والإصلاح الاجتماعي والسياسي قبل أن يطرحها أمثال الطهطاوي والأفغاني ومُحمَّد عبده"⁵.

ومهما قال عنه معاصروه من رجال العلم والمشايخ وحتى من جاءوا بعده، فإنهم لم ولن يفوه حقه، ولكن يكفي مفتينا فخرا أن أعظم شخصية في عصره وهو "مُحمَّد علي باشا" أنصفه وقام بتقديمه على كوكبة من

¹ - عبد اللطيف بن عبد الرحمان بن حسن آل الشيخ، مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام ونسبه إلى تكفير أهل إيمان والإسلام، ط1، مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، 1424هـ - 2003م، ص92.

² - عبد الحميد بيك، المصدر السابق، ص190.

³ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الاسلامي مُحمَّد ابن العنابي، المرجع السابق، ص126.

⁴ - أنظر الملحق رقم 03، ص80.

⁵ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الاسلامي مُحمَّد ابن العنابي، المرجع السابق، ص19.

علماء مصر لمنصب الإفتاء الحنفي لمدينة الإسكندرية، والذي هو منصب من أعظم المناصب في ذلك العصر وأجلها، وهي تركية صريحة من أعظم شخصية سياسية وعسكرية عربية قامت بتأسيس الدولة المصرية الحديثة التي لا تفوقها سوى الدولة العثمانية والتي لم تسلم من تهديده هي الأخرى، حيث اقتطع منها أجزاء كبيرة، وقد اعتمد محمد علي باشا على مؤلفات مفتينا من أجل إرساء قواعد حكمه خصوصا كتابي "السعي المحمود في نظم الجنود" و "صيانة الرياسة ببيان القضاء والسياسة"، واللذين بإستصدارهما نال حظوة ومكانة كبيرتين لدي والي مصر "محمد علي باشا وأصبح عنده مسموع الكلمة ومجيب الطلب، إلا أن مشروع دولة مصر الحديثة والتي كان مفتينا فاعلا أساسيا في تحقيقه سرعان ما فشل بعد أن وقفت دول أوروبا حائلا دون إستمراره¹.

وعلى الرغم من هذا الثناء الكبير والكثير على المفتي بن العنابي، إلا انه لم يسلم من النقد، فقد أشيع عنه انه خارجي زنديق، و يرجع المؤرخ أبو القاسم سعد الله سبب ذلك بأنه كان ضحية فكره ومساعيه من أجل تحرير قومه من الخرافات والأوهام والتخلف، وهو أيضاً ضحية الاحتلال الفرنسي لبلاده².

والحقيقة أنه إذا لم يستطع علماء عصره مجاراته والوصول إلى مستوى علمه وفكره فإنهم حتما سيكيدون له ويتهمونه بالكفر ويرموه بالزندقة، والغريب في الأمر أنه قد حدث لشيخ الحنفية الإمام أبو حنيفة موقفا مماثلا والذي شهد له بعلمه وتقواه أعداؤه ومعارضوه قبل أصدقائه حيث "تعصب ناس عليه فرموه بالزندقة والخروج عن الجادة، وإفساد الدين، وهجر السنة، بل مناقضتها، ثم الفتوى في الدين بغير حجة ولا سلطان مبين، فتجاوزوا في طعنهم حد النقد ولم يتجهوا إلى آرائه بالفحص والدراسة، ولم يكتفوا بالتزيف لها من غير حجة ولا دراسة، بل عدوا عدوانا شديدا، فطعنوا في دينه وشخصه وإيمانه"³.

فالمفتي بن العنابي وإن وافق طرحه دعاة التغريب في بعض المسائل، فإن ذلك لا يعني أنه تغريبي، بل غاية ما يقال إنه مجدد ومجتهد وافق اجتهاده في بعض الأحيان مقولات التغريبيين، لكن ذلك لا يُخرج رأيه عن أراء أهل السنة بأية حال⁴.

¹ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الاسلامي محمد ابن العنابي، المرجع السابق، ص 11.

² - علي أجقو، المرجع السابق، ص 21.

³ - نفسه، ص 22.

⁴ - نفسه، ص 22.

خلاصة الفصل

من خلال دراستنا لهذا الفصل توصلنا إلى الاستنتاجات التالية:

-مصادرة الأوقاف كانت له انعكاسات سلبية على جميع جوانب الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وتتجلى انعكاساتها السلبية على الجانب الديني بالجزائر، لذلك كانت ردود الفعل الجزائرية قوية وعلى رأسهم المفتي ابن العنابي الذي ظل يكافح ولم يستسلم إلى أن نفي من طرف الجنرال كلوزيل.

-يعد ابن العنابي كأحد الرجال الفكر والاصلاح، وذلك من خلال مقاومته للإحتلال الفرنسي، ورغم ما تعرض له كغيره من المصلحين من مضايقات وابتلاءات ومكايد من مرتزقة الدين والفتاوى أصحاب العقول الجامدة والعقائد المنحرفة، إلا أنه بقي صامدا لا يلين ولا يتغير قويا في مواقفه وآرائه.

-عرف عن ابن العنابي بنقده الشديد للسلطات الفرنسية، واعتراضه لعدم إحترامهم لمعاهدة الاستسلام، وقد أثر نشاطه في إثارة مخاوف الفرنسيين فألقي عليه القبض وسجن ثم نفي إلى الاسكندرية.

-كثيراً ما يتعرض المصلح للابتلاءات والمكايد، ولا سيما إن عظمت رتبته في العلم وكانت له مكانة مرموقة وهذا ما حصل للمفتي ابن العنابي، الذي قامت السلطات الفرنسية بنفيه إلى الاسكندرية.

خاتمة

من خلال ما تم تناوله في دراسة "موضوع موقف محمد ابن محمود العنابي من الإحتلال الفرنسي" يمكن استخلاص النتائج التالية:

-لقد عاش المفتي بن العنابي مرحلة ارتقاء ونهضة الحضارة الغربية في شتى المجالات مما أكسبها الريادة ومنحها الغلبة في حروبها مع المسلمين، وبالمقابل عايش واقعا كارثيا للمسلمين غلبت عليه الفتن الداخلية، وتنازع الأهواء فيما بينهم، مع غياب في أسس نظام الحكم، زيادة على التخلف العلمي، نتيجة جمود العقل، والتخوف من طرق باب الاجتهاد، مكتفين بما قدمه السلف، من أفكار وآراء تولدت خلال عصرهم الذي عاشوه.

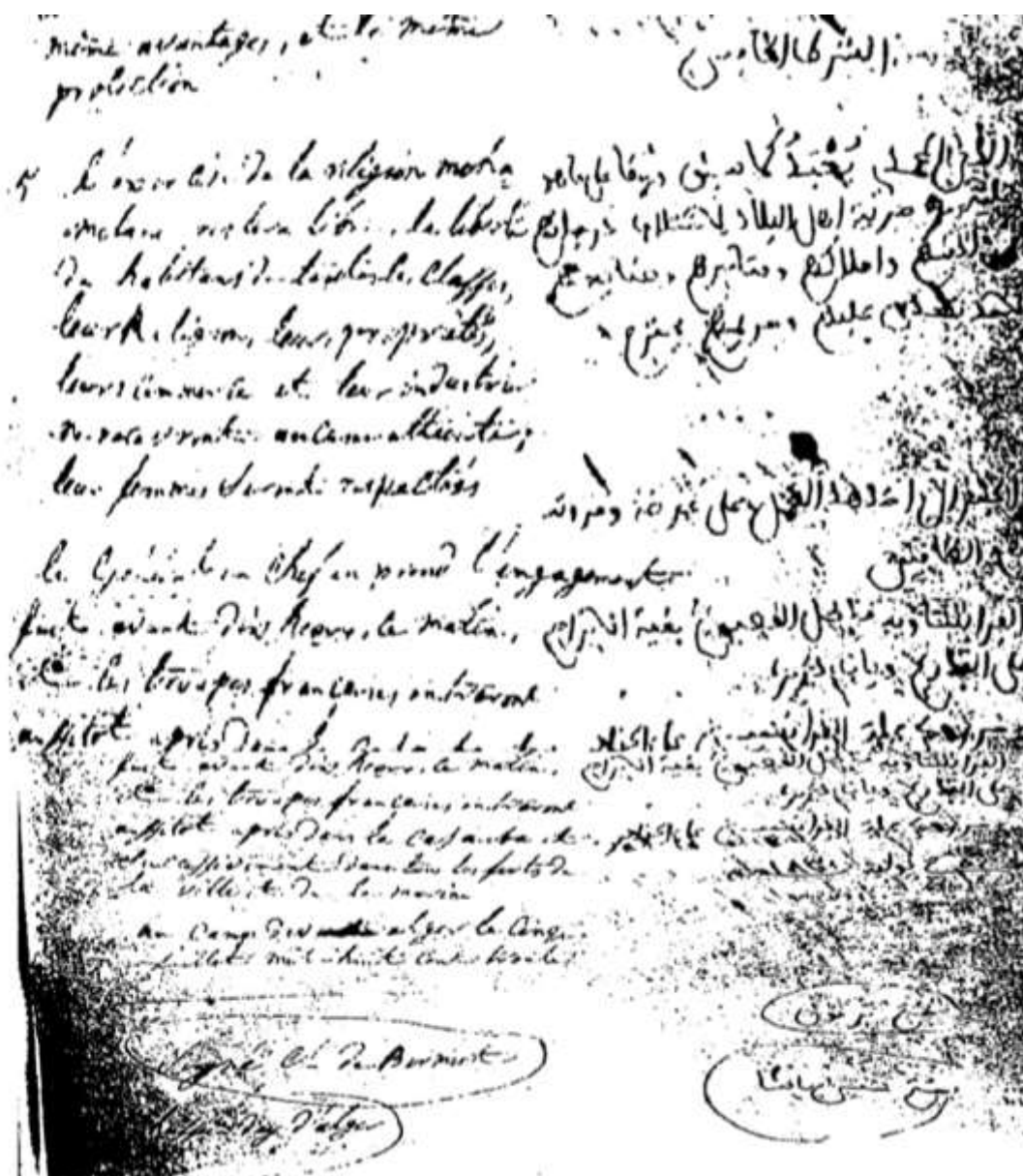
-أثرت الأوضاع التي مرت بها الجزائر أواخر القرن 18م وبداية القرن 19م على العلماء ، فأجَّه فكرهم إلى ضرورة إصلاح أوضاعها دينيا ودنيويا، بعد أن أدركوا عدم تعارض الإسلام مع نظام أوروبا الحديثة في دعوته للإصلاح، فظهر ابن العنابي ليكون مقدمة مفكري أواخر القرن الثامن عشر، ويبيّن الداء ومواطنه، مقترحا الدواء، أملا تغيير أوضاعها قاطبة، مُلِمًا بالنواحي المختلفة بها العسكرية، فالسياسية فالدينية والاجتماعية جاعلا بذلك آيات كتاب الله عل وسنة رسوله الكريم ﷺ حجة لتأكيد ما ذهب إليه من حاجة إلى التجديد والتحديث والاستلهام من النظم الغربية دون المساس بجوانب الشريعة والعقيدة.

-قناعته بأن بلاده الجزائر ما كانت لتسقط في يد المحتل لو أنها أخذت بأسباب القوة التي نادى بها، كما كان للضعف الذي تعيشه الدولة العثمانية، والصراعات والفتن الداخلية سببا في التفريط بالجزائر مع غيرها من بلاد المسلمين المنضوية تحت لوائها. كما حذر من الاستعمار الذي تكالب على أراضي المسلمين وسلب خيراتها وأبرز مثال عن ذلك ما ارتكبه فرنسا من مجازر ومخالفات في الجزائر.

-عرف عن ابن العنابي في الفترة الأولى من الإحتلال بنقده الشديد للسلطات الإستعمارية الفرنسية واعتراضه لعدم احترامهم لمعاهدة الاستسلام، وذلك من خلال الرسائل والشكاوي التي كان يرسلها للجنرال كلوزيل احتجاجا على ما ارتكبه الفرنسيون في حق الجزائريين وقد أثار نشاطه مخاوف الفرنسيين واعتبروه خطرا عليهم فألقي القبض عليه وسجن ثم نفي إلى افسكندرية وهناك توفي.

الملاحق

الملحق رقم 01: الإتفاق بين الجنرال دي بورمون والداي حسين¹



¹ - عبد الحميد زوزو، **نصوص ووثائق من تاريخ الجزائر المعاصر 1830م-1900م**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2009م، ص72.

الملحق رقم 02: معاهدة الإستسلام¹

نسخة

معاهدة بين القائد العام للجيش الفرنسي ، وصاحب السمو داي الجزائر

يسلم حصن القصبة ، وكل الحصون التابعة للجزائر ، وميناء هذه المدينة إلى الجيش الفرنسي صباح اليوم على الساعة العاشرة (بالتوقيت الفرنسي)

يتعهد القائد العام للجيش الفرنسي تجاه صاحب السمو ، داي الجزائر ، بترك الحرية له ، وحيازة كل ثرواته الشخصية

سيكون داي الجزائر حرا في أن ينصرف هو وأسرته وثرواته الخاصة إلى المكان الذي يعينه . ومهما بقي في الجزائر سيكون هو وعائلته تحت حماية القائد العام الفرنسي . ويتولى حرس ضمان أمنه الشخصي وأمن أسرته

يضمن القائد العام لجميع جند الالكشافية نفس الامتيازات ونفس الحماية

ستبقى ممارسة الديانة المحمدية حرة ، ولن يلحق أي مساس بحرية السكان من مختلف الطبقات ، ولا بدينهم ، ولا بأموالهم ، ولا بتجارهم وصناعاتهم . وستكون مساوهم محل احترام

88

والقائد العام يلتزم على ذلك بشرفه

وسيتم تبادل هذه المعاهدة قبل الساعة العاشرة ، وستدخل الجيوش الفرنسية عقب ذلك حالا إلى القصبة ، ثم تدخل بالتتابع كل حصون المدينة والبحرية (1) .

بمعسكر قرب الجزائر يوم 5 جويلية 1830
توقيع : الكونت دي بورمون
هنا وضع الداي ختمه
صورة مطابقة للأصل
ليوتنان جنرال - قائد هيئة الأركان العامة
توقيع دسبريز
صورة مطابقة للأصل
محافظ الارشيف بالوزارة الخارجية
ادوار كارتيرون

¹ - عبد الحميد زوزو، المرجع السابق، ص75.

الملحق رقم 03: صورة من كتاب الدكتور أبو قاسم سعد الله "رائد التجديد الإسلامي"¹

رائد تجديد الإسلام

محمد بن العنابي

المتوفى 1850

صاحب كتاب

الشيء المحمود في نظام الجنود

تأليف

أبو القاسم سعد الله

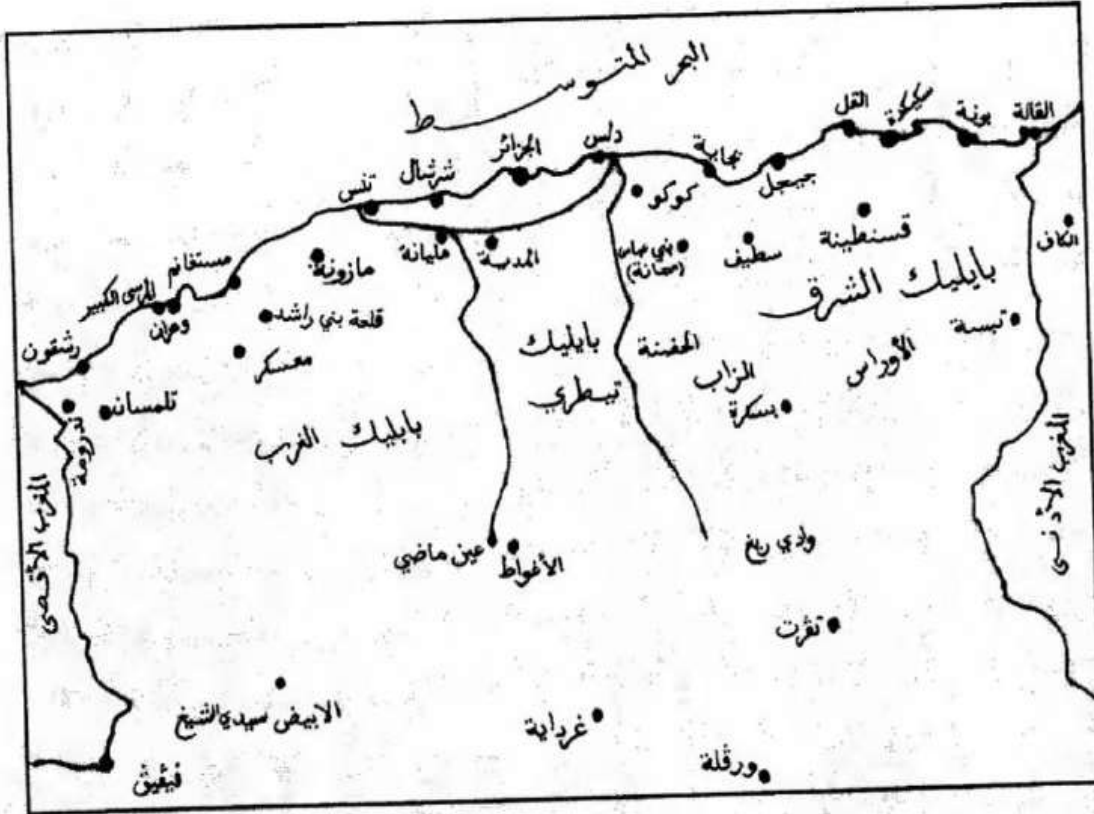
جامعة الجزائر

طبعة ثانية
مزيدة ومنقحة



¹ - أبو القاسم سعد الله، رائد التجديد الإسلامي محمد ابن العنابي، المرجع السابق، ص 02.

الملحق رقم 04: التقسيم الإداري لأقاليم الجزائر خلال العهد العثماني¹



التقسيم الإداري للجزائر العثمانية

¹ - بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر من 1830م إلى 1989م، ج 1، دار المعرفة، ص 20.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المصادر العربية

- 1- ابن العنابي مُجَدِّد بن محمود ، السعي المحمود في نظام الجنود، تقديم وتحقيق: مُجَدِّد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983
- 2- بن حسن آل الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمان ، مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام ونسبه إلى تكفير أهل إيمان والإسلام، ط1، مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية، 1424هـ-2003م.
- 3-بيك عبد الحميد، أعيان من المشاركة والمغاربة، تق وتنع: أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 2000م. التكلة مُجَدِّد زياد بن عمر، مجموع فيه إجازات من علامة الجزائر ابن العنابي الأثري 1189هـ-1267هـ، ط1، دار البشائر الإسلامية، بيروت، لبنان، 2008م.
- 4-خوجة حمدان بن عثمان، المرأة، تق وتنع ومُجَدِّد العربي الزبيري، سلسلة التراث منشورات Anep، 2005م.
- 5- مجهول، مذكرات بربروس خير الدين، تر: مُجَدِّد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، 2010م.

ثالثاً: المراجع

- 1-بلاح بشير، تاريخ الجزائر المعاصر من 1830م إلى 1989م، ج1، دار المعرفة، د.ت.ن.
- 2-بن قينة عمر، صوت الجزائر في الفكر العربي الحديث (أعلام وقضايا ومواقف)، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر.

- 3-بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.
- 4-زوزو عبد الحميد، نصوص ووثائق من تاريخ الجزائر المعاصر 1830م-1900م، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2009م.
- 5-سعد الله أبو القاسم، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، ط1، دار الغرب الإسلامي، جامعة الجزائر، 1996م.
- 6-.....، تاريخ الجزائر الثقافي 1500م -1830م، ج1، ط1، دار الغرب الاسلامي، 1998م.
- 7-.....، الحركة الوطنية الجزائرية 1830م-1900م، ج1، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت لبنان، 1992م.
- 8-.....، رائد التجديد الإسلامي مُحَمَّد ابن العنابي، ط2، دار الغرب الإسلامي، جامعة الجزائر، 1990م، بيروت، لبنان.
- 9-سعيدوني ناصر الدين، ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- 10-.....، الجزائر في تاريخ العهد العثماني، د.ط، وزارة الثقافة والسياحة، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.
- 11-صبري مُحَمَّد، تاريخ مصر من مُحَمَّد علي إلى العصر الحديث، ط2، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996م.
- 12-عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي 1514م-1830م، دار الهوم، 2012م.
- 13-الغازي أماني جعفر، دور الانكشارية في إضعاف الدولة العثمانية، ط1، دار القاهرة، شارع مُحَمَّد فريد، مصر، 2007م.

14- قداش محفوظ، جزائر الجزائريين تاريخ الجزائر 1830م-1954م، تر: محمد المعراجي، منشورات Anep، 2008م

15- هلايلي حنفي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة الجزائر، 2008م.

رابعاً: الرسائل الجامعية

1- بن بلة خيرة، المنشآت الدينية بالجزائر خلال العهد العثماني، أطروحة دكتوراه، تخصص آثار إسلامية، كلية الآثار، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2008م.

2- لزغم فوزية، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي، أطروحة دكتوراه، تخصص تاريخ وحضارة إسلامية، جامعة وهران، 2013م-2014م.

خامساً: المجلات

1- أجقو علي، "المفتي الحنفي الجزائري ابن العنابي وإسهاماته في مجال الثقافة، السياسة، الإصلاح، المقاومة"، مجلة تجسير للأبحاث والدراسات متعددة التخصصات، مج:1، ع1، جامعة باتنة، 2021م.

2- عز الدين بلعيد، التجارة الخارجية للجزائر أواخر العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية والأثرية، ع01، مج03، المركز الجامعي مرسلبي الله تيبازة، 2023م.

3- بوترعة سعد، "الحداثة مفهوم وظهور الدعوة لها في الفكر العربي المعاصر"، مجلة المدونة، مج5، ع1، جامعة يحي فارس، المدينة، 2018م.

4- بوزراع أحمد، دراسة عسكرية لمعركة سطاوالي يوم 19 جوان 1830م، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، ع2، مج5، جامعة الجزائر، جويلية 2023م.

- 5- بن عدة عبد المجيد، رائد المقاومة السياسية الحديثة في الجزائر السيد حمدان بن خوجة 1773م-1845م، مجلة حوليات التاريخ والجغرافيا، ع9، مج2، جامعة الجزائر، 2003م.
- 6- جخدان بو عبد الله، المسالة الجزائرية في المؤتمرات الدولية 1814م-1818م مؤتمر إكس لاشايل 1818م، مجلة العصور، ع34-35، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، أفريل جوان 2017م.
- 7- حاجي فريد، محمد ابن محمود (ابن العنابي) وموقفه من حضارة الغرب في القرن 19م، مجلة الدراسات التاريخية، ع14، مج2، 2013م، قسم التاريخ جامعة الجزائر2.
- 8- درويش الشافعي، علي باي الحسيني التونسي 1759م-1782م، مجلة مدرات للعلوم الاجتماعية والانسانية، ع03، جامعة زيان عاشور، الجلفة الجزائر، جانفي 2021م.
- 9- سعد الله أبو القاسم، الجديد عن ابن العنابي، مجلة الحوليات، مج1، ع1، جامعة الجزائر، 1986م.
- 10- سلطاني أحمد، من قضايا الاصلاح عند المفتي ابن العنابي (1775م-1850م)، مجلة العبر للدراسات التاريخية الاثرية، مج1، ع2، جامعة ابن خلدون تيارت، سبتمبر 2018م.
- 11- شوقي عبد الكريم، تطور الوضع السياسي والعسكري في عهد الدايات العاديين بالجزائر (1611م-1761م)، مجلة قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية، ع2، مج7، جامعة الجزائر2، ماي 2023م.
- 12- عامر محمود، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية، مجلة الدراسات التاريخية، العددان 18-117، قسم التاريخ، جامعة ديمشق، 2013م.
- 13- عصماني أحمد، النخبة الجزائرية وموقفها من الاحتلال الفرنسي لمدينة الجزائر 1830م، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، ع17، جامعة البليدة 2، جوان 2017م.

14-قاسي فريدة، رواد الإصلاح الجزائريون خلال الفترة الحديثة ابن العنابي أنموذجا، مجلة الإنسان والمجال، مج:8، ع2، مخبر الدراسات المتوسطة عبر العصور، جامعة يحي فارس، المدية الجزائر، ديسمبر 2022م.

15-قسول عبد الحميد، إسهامات خير الدين بربروس (1518م-1543م) (924هـ-950هـ) في بناء كيان الدولة الجزائرية الحديثة وفق الدراسات الحديثة، مجلة القضايا التاريخية، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة، ع1، مج8، 2023م.

16-المشهداني مؤيد محمود حمد، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني 1518م-1830م، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، ع16، مج:5، جامعة تكرت، أفريل 2013م.

17-مريخي رشيد، ملامح من الحياة الثقافية في الجزائر أواخر العهد العثماني، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، ع12، مج5، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ديسمبر 2017م.

سادسا: المعاجم والقواميس

1-خير الدين الزركلي، قاموس التراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج7، ط5، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ماي 2002م.

2-عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، لبنان، 1400هـ-1980م.

سابعا: المحاضرات

1-بوزيفي وهيب، محاضرات في مقياس مدخل إلى تاريخ الجزائر المعاصر، سنة أولى جذع مشترك علوم إنسانية، كلية علوم الإعلام والاتصال، قسم الإعلام، جامعة الجزائر 03، 2015م-2016م.

فهرس

الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	أ
شكر وعرفان	ب
قائمة المختصرات	ج
مقدمة	د-ز
الفصل الأول: التعريف بحمد بن العنابي	28-9
أولاً: مولده ونشأته	9
ثانياً: تكوينه العلمي والفكري	13
ثالثاً: وظائفه ومراسلاته	21
الفصل الثاني: تردّي أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني وجهود ابن العنابي الإصلاحية	58-30
أولاً: تردّي أوضاع الجزائر أواخر العهد العثماني	30
ثانياً: جهود ابن العنابي لإصلاح أوضاع الجزائر	50
الفصل الثالث: مُحمّد ابن العنابي والإحتلال الفرنسي	74-60
أولاً: موقف ابن العنابي من سياسة كلوزيل اتجاه الأوقاف	60
ثانياً: مقاومة ابن العنابي للاحتلال الفرنسي	64
ثالثاً: موقف الاحتلال من نشاط ابن العنابي	66
رابعاً: حياة ابن العنابي في المنفى ووفاته	69
خاتمة	76
الملاحق	81-78
قائمة المصادر والمراجع	87-83

الملخص بالعربية:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على دور أحد رجال الفكر والإصلاح في العالم الإسلامي هو المفتي الحنفي الجزائري ابن العنابي في مجال الثقافة، السياسة، الإصلاح ومقاومة الاستعمار الفرنسي وذلك بالتطرق إلى سيرته الذاتية من حيث مولده ونشأته وتكوينه العلمي والفكري، ودوره في الإفتاء والقضاء، ومن ثم جهوده الإصلاحية السياسية، والعسكرية، والثقافية، انتهاء بدور ابن العنابي في مقاومة مشاريع الاحتلال الفرنسي، وذلك للإجابة على الإشكالية المتعلقة بالدور الذي لعبه هذا العالم والمفكر الجزائري الفذ في مقاومته للإحتلال الفرنسي؟

الكلمات المفتاحية: ابن العنابي، الإصلاح، المقاومة، القضاء، الإفتاء.

Abstract :

This study aims to highlight the role of one of the intellectuals and reformers in the Islamic world is Mufti Hanafi Algeria Ibn Annabi in the field of culture Policy, reform and resistance to French colonialism by addressing his autobiography in terms of birth, upbringing and scientific and intellectual composition and its role in the winter and the judiciary, and hence its political and military reform efforts, culturally, bearing in mind Ibn Annabi's role in resisting French occupation projects, To answer the problem of the role played by this world and Algerian thinker in resisting French occupation?

Keywords: Ibn Annabi, Reform, Resistance, Judiciary, Advisory Opinion